مركز الشريط الإسلامي
Islamic Cassette Centre

أروع حب

قصة واقعية للفتيات في العشرين

بقلم
أ. سهام خالد العامر

مركز الشريط الإسلامي
Islamic Cassette Centre

الإدارة هاتف: ٠٦/ ٥٧٢٣٣٩٩ ، المركز الرئيسي: ٠٦/٥٧٢٤٦٦٦
فاكس: ٠٦/٥٧٢٣٣٢٣ شارع الملك عبد العزيز
ص.ب ٢٤٥٥٥ الشارقة أ.ع.م
البريد الالكتروني : islam_cc@emirates.net.ae

حقوق الطبع والنشر والاقتباس
محفوظة لدى المؤلفة

الطبعة الأولى ٢٠٠٦

لتواصلي معكم

ولأسمع آراءكم ولربط صداقة فيما بيني وبينكم

تجدونني على

sehamalamer@hotmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

قارئتي .. استسمحك عذراً

عـزيزتي الـقـارئة... أقـدم لك اعـتـذاري وسـمـاحـتـي بأني وعدتك في كتاب وراد ندية إن إصداري الثالث سيكون هو «درنقية» .

والآن بين يديك إصداري لك «أروع حب .

وأعـدك... إن الاصـدار الرابع «درنقـيـة» في طريق النشـر بإذن الله تعالى.

فهل قبلت اعتذاري؟

مع تحياتــــــي؟!

المؤلفـــة

سهام خالد العامر

يناير سنة ٢٠٠٦

انتظروا الإصدار الرابع

«دُرر.. نقية» قصص واقعية

لمفهوم الصداقة لدى الفتيات

❀ صدر للكاتبة

- أجواء وردية
- وراد ندية

رسائل حب خطت على صفيحة القلب

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى جدتي العزيزة والحبيبة:

لن أنسى أبداً ابتسامتك ومعلوماتك الكثيرة التي قدمتها لنا مثل: ذكر الله وتذكيرني بالصلاة إذا نسيت كنت كلما أراك تبتسمين تملئين قلبي فرحاً وراحة كبيرة كان فراقك صعباً وحزناً جداً لكنك عامتنا العبادة والصلاة وكل شيء من الإسلام لن أنساك يا جدتي أبداً لقد ساعدتني في كل شيء كنت كلما آتي (إلى بيتها) تقولين لي: شيخ الصبيان تكررها لي كلما آتي فلن أنسى ذلك أبداً.

مع حبي من حفيدك العزيز فيصل.

جدتي حمدة عزيزة
جداً وإن شاء الله
أنتي في الجنة
ولا لوقا أتشوق للقاء
الله في الجنة _
حفيدتك آمنة

إهدائـــي

أمـــي.. سمعت كثيراً من القصص واخترت بعضها لصفها على الورق عشتها في لياليها، وأحبرها في نهارها.. أجملها لتصل لمن تقرأها وأهتف في أذنها إنها حقيقة وليس حبر على الورق.

أمـــي.. لم أتخيل يوماً أن أمسك بالقلم وأكتب عن **أروع حب** عشقته وعايشته نفسي وروحي وودعته منذ أشهر قليلة.

أمـــي.. ارتوى سمعي من قصة كفاحك منذ أن طبعتها خطوات حياتك بـ «طفولتها، وشبابها، ونضوجها، حتى أنهكها المرض»..

أمـــي.. أهديك كتابي...

أمـــي.. أعلم إن هذه التحفة الإعلامية لن تسمعي منها كلمة ولن يقرأ عليك منها حرفاً، ولكن يشهد الله سبحانه أنك ما زلت في عيوننا وأرواحنا وقلوبنا وما أسطره الآن لشيء بسيط قليل ذليل أمام عطائك وحنانك وعطفك ... آه وأمومتك.

ابنتك المحبة

سهام خالد العامر

يناير سنة ٢٠٠٦

المقدمة

أعجبت نفسي... لبطلة كتابي هذا، لما حملته من صفات التفاني والحب والذكاء والحكمة.

وتعجب فكري... لصغر سن هذه الفتاة وما حملته أخلاقها من صفات حسن التدبر في مواقفها الحياتية.

وسمت روحي... لفيض مشاعرها نحو أسرتها وعائلتها وجيرانها.

ولهذا... أسرع قلمي... فأفردها بقصة كاملة لا تزاحمها قصص أخرى.

أ / سهام خالد العامر

يناير سنة ٢٠٠٦

الفهرس

الموضــوع	رقم الصفحة
- زوايا حياتي	١٧
- ليلة ولحظة لا تنسى	٢٧
- وغابت عن عالمي وجوه	٤٣
- لقمة العيش	٦٣
- وفتح لنا باب خير	٨٩
- مرارة القرار	١٠١
- حديث الفجر	١١٣
- أجمل غروب عند التقاء القلوب	١٢١

شددت الرحال إلى مكان يطل على الخليج العربي، وقفت بي السيارة أمام البحر، أخذت خطواتي تتسارع إلى ذلك المخلوق، طبعت خلفي أثر قدمي على الطريق الذي سلكته، أنظر إليه ويخيل لي وعيني عليه، كأنه يتنفس عندما يأخذ بالمد تارة وبالجزر تارة أخرى.. دغدغة نسيمه العليل لمشاعري خالجتها الذكريات والصور والأقاويل، ملت برأسي استدرت فجأة إلى الخلف عندما ترامى إلى أسماعي صوت طائر وتأملت آثار خطواتي على الرمال الناعمة، فقلت في نفسي: هذا حالنا في هذه الدنيا، مثل تلك الحفر الرملية، آثار نتركها وبصمات نرسمها.. رفعت رأسي متتبعة الطائر الذي ارتفع إلى السماء، ابتسمت له مودعة وطاف ناظري حول الأرجاء، ومن بعيد تراءت لي صورة بيت متواضع يطل من بين البيوت، بناؤه من طين، اقتربت منه، ولفت نظري حروف كُتبت على جداره.. وبفضول الكاتب تتبعت عيني هذه الحروف، اقتربت أكثر فقرأت ما نقش على ذلك الجدار المتهالك، تثاقلت قدماي بخضاب الماء والتراب، واقتربت شيئاً فشيئاً، حتى وقفت أمام الجدار.. ياه ماذا أقرأ

كأنها قصة.. نعم قصة والدليل على ذلك ما شدّني ولفت انتباهي جملة «قصة حقيقية» نظرت إلى ساعتي وأقول هل لدي من الوقت لقراءتها لا يهمني برنامجي اليوم ما دامت تستهويني القصص الواقعية، ومكثت أتأمل تلك الجملة بعنوانها الجميل المكون من كلمتين بستة حروف، ووقفت أقرأ رغماً عن الظروف ذلك العنوان «أروع حب» ابتسم محياي وقلت آه كم نحن بحاجة لنماذج رائعة عن الحب..

هيا أيتها القارئة لنبحث عن هذه الكلمة في الحقيقة وليست في الخيال الذي تعايشت فيه مع نفسي، لأن نفسي كم هي تواقة إلى البحث عن أروع حب، أو ما رأيك لو تحدثت البطلة عن قصتها، حتماً بل وأكيد سيكون صدىً في نفسك.. فهيا بنا ننطلق إلى عالم الواقع.

زوايا حياتـــي

كيف أبدأ بحروفي ... وكلماتي ... وأبصرها الآن امتزجت بقطرات دموعي ... كيف أرتب بصف جُملي، ووصف عباراتي، والقلب مجروح يُدمى كيف أجمع بأوراق روايتي وبالأمس القريب أسمع حديثك، همسك، وحتى صمتك، يحرك عاطفتي كيف يا قلمي وأنت يا محبرتي، تصفان أروع إنسان رأتها عيني.. إنها أمي.. أمي.. أمي..*

---

* الكاتبة

من بيت متواضع، بسيط، يطل على الخليج العربي. عشت بين أسرة صغيرة مكونة من ستة أفراد، والدي الذي يتميز بحبه وعطفه على الجميع يعمل في الغوص على اللؤلؤ يقضي الأيام والشهور خارج محيطنا الأسري وأمي التي تدير البيت ومستلزماته من طبخ وتنظيف وتربية الأطفال وتتفقد أحوال أفراد أسرتها، وجدتي التي أراها عنوان الصلاح والتقوى عرفت بعض أمور ديني منها وتمتلك خبرة في أمور التطبب وقد عرفت ذلك من أمي حيث كانت تقصدها النساء لأمور العلاج.. ولدي أخت تكبرني بخمس سنوات اسمها «مريم» أخت من والدتي، لم أعرف هذه المعلومة إنها أختي من والدتي قارئتي العزيزة... عرفت ذلك من والدتي عند زواجها، فكانت حكمة والدي ألا يعلم أحدٌ منا حتى لا يكون هناك شيء في النفس.. تمتاز أختي بالهدوء، هي مسالمة في كل أمور حياتها، أما أخي «علي» فكان يصغرني بثلاث سنوات.

هذا البيت كان يجمعه الحب، والعطف، والأمن، صنعته تقوى من الله سبحانه، وقدوة أهله الرسول عليه الصلاة والسلام، ومن سمات أسرتنا أن نحمي بعضنا البعض، يحكمنا مبدأ: «انصر

أخـاك ظـالماً أو مظلومـاً» أي مـبـدأ «النصـرة» هـو المبـدأ الجلـيّ والواضح في أي ظرف أو مشكلة حتى البلاء عندنا يعني التكاتف والتعـاضـد فـيمـا بيننا... اعـذريني قـارئتي اسـهبـت ونسـيت لم أعـرفك على نفسـي إسـمي «حـمـده» في هذه الفـتـرة التـاريخـيـة والحقبـة الزمنيـة، كان عـمري «سبع سنوات» في هذا السن الذي بدأت ذاكرتي تسجل الأحداث والمواقف.

ببراءة الطفولة وسذاجتها المرحة، أبدأ يومي «بصلاة الفجر»، الصـلاة ركن أسـاسـي من أركان الإسـلام والبـراءة والطفـولة تدل على السذاجة والسفاهة، أصحو وما زال النوم يداعب أجفاني، أحس من يهز جسدي الصغير ويشدّني من الفراش، لأصلي صلاة الفجر، هكذا علمنا والدي، مبدأ لا يتغير بأي حال من الأحوال، في الصـحـة أو المرض «الصـلاة في وقـتـهـا»، وفي الشـتـاء أتذكـر حيـنهـا عندمـا يكون الجـو قـارس البـرودة في هذه السـاعـة، والماء متجمداً فكنت أتوضأ بسرعة حتى لا تتجمد أطراف أصابعي، ويجتاح البرد القارس جسدي الصغير أثناء صلاتي عيني تزحف بنظرها إلى الفراش أفكر متى يغوص جسدي تحت الفراش أكافئه بالدفء والراحة... مرات أرجع إلى النوم... ومرات قليلة

أبعد اللحاف عن جسدي الدافئ لأساعد أمي في إعداد وجبة الفطور المكون من قهوة عربية وتمرات، وكسرة خبز، ذلك على حسب نشاطي اليومي، فإذا ما عدت إلى الفراش، فأغطي وجهي لاستمتع بمداعبات أختي وضحكاتها الرنانة.. وها هي نظراتي تتنقل إلى جدتي بين يديها كتاب الله سبحانه تقرأ وردها.. ومن بعيد أمي أراها متجهة بعد أن تؤدي صلاة الفجر إلى المطبخ، تعد الإفطار للإسرة. وعندما أرى أبي يدخل من الباب يلهج لسانه بالتسبيح والذكر، أزيح الغطاء عني، وأركض لأطبع قبلة على رأسه، أشتاق إليه كثيراً، لأنه يغيب أياماً عنا، فنفتقد صوته وصورته، ووجوده بيننا، بحكم عمله، وتارة يسرق النوم عيني، فلا أصحو إلا عندما توقظني أمي، فأغير ثيابي سريعاً حتى أذهب إلى المطوعة* أنتظر صديقتي «موزه» وأختها «حصة». وأخرج لهما مودعة جدتي وأمي. أمسك بيد «موزه» ونمشي إلى مكان علمنا.. نمر على صديقتنا «فاطمة» لتكتمل المجموعة الخمسة، ولو قدر لك رؤيتنا عزيزتي القارئة.. لوجدت براءة الطفولة بها

❖ المطوعة: هي المعلمة التي تدرس الفتيات القرآن الكريم ومبادئ من اللغة العربية.

وقد ألبست ملامحنا وضحكاتنا السعادة والمرح، ومراجعة ما حفظناه من درس الأمس يعليها.. وكيف تقيمي نشاطنا عند المطوعة، إن كانت خطواتنا على الطريق سريعة فحرصنا على إتمام واجباتنا وحفظ ما درسناه كان أسرع. فنحن نتسابق فيما بيننا، وإن كانت خطواتنا متثاقلة ومتباطئة دلت على اهمالنا في حفظ آية الأمس.. رفرف جمال السعادة على تلك الأيام فلم ننساها، أيام حفظت فيها سوراً من سور القرآن الكريم، وفيها عشت الصداقة البيضاء الشفافة، تخالطها الألعاب المرحة والتسالي والمواقف الظريفة مع المطوعة كما أعتبرها غالية وثمينة لأنني عشت مع كتاب الله سبحانه فإنه يخاطب الروح والنفس والعقل. وها هي المطوعة تشير بيدها معلنة عن إنتهاء اليوم، نحمل في صدورنا الآيات الكريمة الجديدة التي لتونا حفظناها نرددها أنا ومجموعتي، ونسير بطريق العودة للبيت نسلك طريقاً مختلفةً عن طريق الإياب. هذا الطريق متميز، يعلن عن انتهاء بعض اليوم، كما إننا نمر بجانب البحر، مرات نلعب برماله وبعض المرات نجلس على رمال شاطئه نحكي ما حدث في يومنا، لا نطيل المكوث وإذا سرقني الوقت وتأخرت عن البيت أجد العقاب

والتوبيخ بإنتظاري، وودعت صديقتي موزه الذي كان بيتها آخر البيوت.. كثير من المرات أرى أمي في موقعها المعتاد أمام التنور تعدّ غداء اليوم.. وأختي تكنس الفناء أو تغسل بعض الأواني ومرات أرى جدتي تشارك في بعض المهام كغسل الفاكهة والخضروات ومرات أراها تداعب أخي.. هذه الصور الجميلة رسمت في مخيلتي، حتى حفظت حركات وسكنات أفراد هذه الأسرة. أما أبي أعلم في قرارة نفسي إنه خارج البيت، ولا يجلس كثيراً معنا على الوجبات، يبحث عن رزق هذا البيت، وبعد أداء صلاة الظهر نفترش المائدة أرضاً التي تعد من أصناف معدودة العدد، قليلة النوعية، نجتمع بعددنا القليل... أكون حزينة إذا لم يكن أبي مترئساً المائدة فأعلم إنه أعد عدته وخرج مع أصحابه في رحلة الغوص وفي الظهيرة تسكن الأجساد بعد معاناة يوم شاق إلا أنا وأخي، نلعب ونركض ونتسابق.. فالطفولة في هذا السن عدوها النوم والراحة نجد المتعة في الحركة والقفز، صنعنا ألعاباً بيدينا اذكر الصندوق الحديدي الذي كنت أضع بداخله أخي وأدفعه بقوة بين ضحكات وسريرات القلب، نتوقف عن هذا النشاط والحركة بعد أن يؤذن المؤذن لصلاة العصر، نتسابق أنا

وأخي لإيقاظ جدتي وبعدها والدتي ومن ثم أختي.. أتذكر علمني هذا الترتيب العمري بعد أن نبهني والدي مرة من المرات ذهبت أوقظ أختي قبل الآخرين.. فعلمني والدي هذا النظام، فصرت أطبقه حتى عندما أريد أو أؤدي حقاً أو واجباً لهن.. بعد الصلاة بساعة أو أكثر بعد أن تنخفض حرارة الشمس، أذهب مع أمي وأخي مع الجيران مسيرة ساعة على الأقدام، لنجلب الماء من الآبار التي تكون خارج المدينة، نأتي بعد المشي ساعتين، حاملين جراب الماء.. أرجع وألقي بنفسي على البساط الذي وضع في فناء البيت، وقد أخذ التعب مني كل قوتي فأرهقني التعب وأنهكتني حرارة ورطوبة الطقس، أجلس للراحة حتى يسرق عيني بعض المرات النوم وأكون في سبات عميق، خاصة إذا كان يومي قد بدأته بعد صلاة الفجر مباشرة.

ولا أذكر في هذا السن إني عشت ساعات الليل أو حتى إلى العشاء فكنت أنام مبكرة أنا وأخي وذلك أثر المجهود طوال النهار.

تمر الأيام بمناسباتها السعيدة، فمثلاً شهر رمضان.. يتميز بزيارة أرحامنا، وأذكر بدأت بالصوم وأنا في هذه السن، أتناول طعام السحور مع بقية أفراد أسرتي طوعاً أو قسراً، ما زالت

عيني بها علة النوم أحمل اللقمة لفمي وعيني مغلقة من النعاس ورأسي يهتز يميناً ويساراً، أسمع حينها الضحكات، وأذكر كنت أميز ضحكة أبي وجملته: «لا أظن يا حمدة استطعمت هذه اللقمة» ، ومن قال: «النوم سلطان»، لم يكذب بذلك،

وأذكر كانت أمي حريصة حتى إذا لم أتناول شيئاً كانت من المهم عندها أن تسقيني الماء، كانت تدرك أن الصيام مشقة لمثل من في سني أذكر جملتها «اشربي ماء كثيراً» في هذا الشهر يقل نشاطي أصلي الفجر وأرقد حتى الظهيرة.. فالجو حار ورطب وكنت دائما جالسة وبيدي مروحة من القش ألوحها على وجهي، أحب هذا الشهر لأنه يجمعنا بأبي. أجلس بجانبه على المائدة وأتنافس مع أخي من يجلس بقربه أو على ركبته، كنت أصلي صلاة التراويح مع جدتي أقلدها في حركاتها.

فإذا ما جاء العيد، ننتظر ما تعده لنا الخالة «عائشة»، من كعك وخبز كانت تسكن بقرب بيتنا أحبها كثيراً دائماً إذا زرتها أنا وصديقاتي تعدّ لنا الأطباق اللذيذة وتعجن نبات الحناء، لكي نضعه في راحة كفينا كما كانت تخيط لنا ثياباً جديدة، فنحن في منزلة بنات لها لإنها لم ترزق بأولاد، في ليلة العيد كل بنات

الجيران عند الخالة «عائشة» لا يخرج أحداً من بيتها وإلا الحناء والفستان الجديد بين كفيها، وفي يوم العيد نحرص أن نزورها، حتى ترى الفستان الذي كان من اختيارها، كانت متعة العيد في الزيارات والأقارب الذين نراهم في هذه المناسبة بحكم سكنهم البعيد. ومتعته أيضاً الأصناف المتعددة من الحلوى والكعك في الأطباق الخاصة التي تعد في هذه المناسبة.

ولا أخفيك معلومة... إنني أحب «الخالة عائشة» أحب أن أزورها لتروي لي القصص، أساعدها في أعمال المنزل وتعود الحياة إلى وتيرتها بعد العيد.

أما عن زيارات الأقارب فكانت مهمة بالنسبة لنا، فأزور خالتي «أخت أمي» وخالي، أما عمي لم أراه قيل أنه مات قبل ولادتي وعمتي تسكن في منطقة بعيدة، ولهذا لا أعرف كثيراً عنها فأبي وأمي هما الوحيدان اللذان يزورانها فقط.

ليلة ولحظة لا تنسى

أمـي...

مـا بدت ذكـراك التي احـتـضنتـهـا
وقلت بملء صدري الله أكـبـر
أحـبك في ذات الإله تقـربـاً
لعلي بهـذا الحب في الله أؤجـر*

---

* مقتبس

ومرت الأيام والشهور .. ذات يوم أرى حركة غير معتادة في البيت فوج من النساء قد جلسن في الفناء حملن بهدايا وعطايا.. أنظر إليهن وأنظر لحاجاتهن، أفكر هل هي ليلة عيد؟ لا أظن ذلك جلست بعيداً أترقب ما يحدث، يتحدثن بحديث لا أفهم منه شيئاً وبجانبي أخي يلح عليّ أن نذهب لنلعب، لم أهتم بطلبه، ذهبت لأمي أسألها عن الأحداث الغريبة التي تدور في البيت فقالت: «حمده... أختك مريم ستتزوج!»

قلت لها بعفوية: يعني ماذا ستتزوج؟ ما هو الزواج؟!

أذكر حينها أمسكت أمي بطرف خمارها ووضعته على فمها تخفي ضحكة.. وخرجت مسرعة حتى لا أحرجها أكثر من ذلك.. بعدها بيومين رأيت أختي في كامل زينتها محاطة بفتيات الجيران، أنظر إليها وأنا لا أعي ما يدور. ودعتنا أختي ليلاً، ذهبت إلى سريري، أنظر إلى سرير أختي الخاوي، فبكيت وتذكرت المواقف والأحاديث والأحداث التي جمعت بيننا، فأغلقت عيني، وأمرت ذاكرتي ألا تستدعي تلك الذكريات، حتى لا أعيش

الحزن طوال الليل، وفي اليوم التالي جلسنا على وجبة الغداء فنظرت لعدد أفراد أسرتنا الذي أصبح خمسة فحزنت كثيراً لفراق أختي، وبعد ذهاب أختي لمنزل زوجها زاد عبء المسئولية عليّ لأنني الآن في عمر أكبر ولسبب آخر زواج أختي. أرجع بعد المطوعة أحمل بعاتقي أعمال المنزل التي كانت تديرها أختي والجميل في ذلك يساعدني أخي ليس حباً في العمل بل حتى أكافئه بدفعه في صندوقه الحديدي، لأنه كان يعشق هذه اللعبة يساعدني في تنظيف البيت وقطع الخشب، حتى في تأدية تلك الأعمال كنا نضفي جوا من المرح والسرور، مرة تشجعنا والدتي ومرة توبخنا عندما لا نؤدي العمل على أكمل وجه.

وذات ليلة في نفس هذه السنة كنت نائمة في الفناء كانت غرفة والدي مجاورة منه، إذ أزيز بكاء وكأنه يهز جسدي ليوقظني، فتحت عيني نظرت بخوف وذعر إلى جدتي أراها في سبات عميق، انتقلت نظراتي إلى أخي وإذ هو أيضاً نفس وضع جدتي، ركزت بحواسي لأدرك صوت من يبكي وما زال الصوت يرن في أذني، أمي نعم إنها أمي تبكي هل ألم بها شيء؟! قفزت

من فراشي لأذهب إليها وتحدثني نفسي أم هي تشاجرت مع والدي.. لا.. لا .. فأبي عُرف عنه بحنانه وعطفه وحبه للجميع وخاصة لوالدتي. تساؤلات ضربت عقلي حتي استوقفتني جملة أبي: ما هو العمل يا أم علي؟

حينها وقفت مهمتي بالبحث عن سبب بكاء والدتي، أخذت خطوات تتسارع فرحاً إلى العودة إلى مهجعي حتى استوقفني حديث أبي وجملته التي طبعت في عقلي «ماذا أفعل.. كيف أسدد ديوني، والبيت يحتاج لمأكل ولمشرب، هذه الجملة رسخت في ذهني ولكن لم أدرك أو أعرف حرفاً منها، رجعت إلى فراشي، بكيت ردة فعل طبيعية عندما سمعت بكاء أمي، نزلت دموعي على وسادتي.. حزنت تغلبت على الفراش، طوال الليل حتى أرغمني النوم على إغلاق عيناي.

من هذه الليلة، عزيزتي القارئة.. أدركت أنني مسؤولة مع والدتي أمام هذه المشكلة، أعلم أنهم يمرون بمشكلة، ولكن لا أفهم فحواها، خاصة كلمة «ديون»، أيقظتني جدتي لصلاة، قفزت مسرعة أريد أن أرى أمي بعد ليلة أمس ما شعورها وما هي

نفسيتها، رأيتها في قمة النشاط والذكر لا يفارق لسانها والابتسامة زينت محياها .. ذهبت أقبلها وكأنني أرفع قليلاً عما يثقل نفسها، حتى بادرتني بالقول: «حمده صليت!» .

سعدت بذلك عرفت إن مشكلة الأمس ليلاً مرت بسلام وضعت يدي على صدري وأنا أقول: «الحمدلله، الحمدلله».

ومرت الأيام بأحداثها اليومية المعتادة، ولكن ظلت كلمة أبي الغريبة على فهمي التي طبعت في ذاكرتي ذات الليلة، كنت ابحث عن شخص يفسرها لي ويفهمني المعنى فسألت صديقتي «موزة» فكان الجواب لا أعرف، أذكر حينها سألت المطوعة عن الكلمة فقالت: هذه جمع دين، فأذكر إنها فسرتها بجملة أخرى أصعب من الكلمة، اضحكتني وهذا يؤكد على القول المأثور «فسر الماء بعد الجهد بالماء»، رجعت في نفس اليوم ذهبت مسرعة لوالدتي أسألها عن حالها، نظرت إليّ نظرة حب وحنان فقالت: لِم لا أكون مرتاحة؟ أنت أمامي تكبرين بصحة وعافية، وأمي بجانبي ترعى معي بيتي، ووضعت يدها على بطنها، أشهر قليلة وانتظر مولوداً جديداً بعد هذا تظنيني إني متضايقة.

وتسارعت الأيام من نفس العام واذكر لم يفتر لساني بالدعاء كنت أقلد دعاء جدتي كنت أريد حل للمشكلة وكنت اتساءل هل انتهت المشكلة هل حيرتي الآن ليس لها داع، وتركت حيرتي للأيام ولو إنني تمنيت تحل عقدتي.

وجرت الأيام جريان السيل المتدفق من أعلى الجبل، وكنا نقطع كل يوم الطريق إلى المطوعة، ونجرى نحو البحر لنجمع أصدافه ومحاراته التي انتثرت على الرمال المبللة، أمسكت بيد صديقتي فاطمة أطلب منها التريث في السير لنجمع هذه المحارات، سخرت مني قائلة: لنذهب، إنها أصداف ليست ذات قيمة، لو كانت ذات قيمة لجمعها الصيادون واهتموا بجمعها.

فأفلت يدي من بين يديها وأسرعت بجمع المحار المتناثر، وكنت أجمع داخل طية ثوبي، شعرت عندما التقط الواحدة تلو الأخرى وكأن التقط السعادة والخير.. صديقتي قارئتي العزيزة.

جمعت كمية ليست بقليلة احترت أثناء سيري بثقلها إلى البيت، دخلت وإذ بأبي جالساً في فناء البيت أطلق ضحكة عالية رجت البيت وبها جمع أفراد الأسرة جدتي وأمي وأخي عندما

رآني حاملة المحار، فقال لي: ما الذي جلبتيه؟

قلت بعد أن أفلت فستاني من يدي لتسقط الغنيمة على الأرض: محار يا أبي لعلي أجد شيء من اللؤلؤ الجميل..

قال وهو ينظر إليّ مبتسماً: «إن شاء الله إن شاء الله» ما رأيك أن نبدأ بفلقها بعد الغداء،

قلت: حسناً ولكن بشرط يا أبي أن اقسم هذه الغنيمة قسمين قسم لك وقسم ليّ والذي يجني من حصته فهو له..

فما زالت ابتسامته على وجهه فقال: هيا فالغداء جاهز.

وبدأت العمل مع أبي بعد وجبة الغداء افترشنا الأرض، أبي بدأ بحصته وها هو أوشك على النهاية بحكم الخبرة والسن والقوة، وأنا ما زلت في المنتصف بل ربع العمل، مع كل هذا ويساعدني أخي، أرى من بعيد جدتي جالسة ويغالبها نعاس الظهيرة.. وهناك والدتي تغسل الأطباق، حتى شدني أبي إليه بجملته: «إنتهت حصتي لا يوجد شيء يا حمده»، ما رأيك لو أساعدك،

قلت: نعم، تساعدني ولكن ما..

قال ضاحكاً قبل ما انتهى من جملتي: ما يظهر من حصتك فهو لك.

ضحكنا معاً.. ومرّ الوقت وساد الهدوء الكل منهمك بعمله، حتى رفعت رأسي من صرخة أطلقت في جو هادئ وصامت من والدي: الله أكبر، ما شاء الله، ما شاء الله، لا أصدق ما أراه.

ركضت والدتي نحونا واستيقظت جدتي من رقادها أخذت خطواتها إلينا ثقيلة وبطيئة وأمي ألحقت بتساءل: ماذا يا أبا علي؟ ماذا..

وأنا فاغرة فاهي ذهولاً وسعادة التي عقدت لساني من الموقف ولكن ليس مثل ردة فعل أهلي ... وها هو أبي تلمع بين اصبعيه السبابة والإبهام وعيناه تلمع بدمعة خفية وكأني أسمع دقات قلبه تتسارع سعادة، عمت الفوضى بين الصراخ والضحكات كل يعبر عن سعادته أثر سعادة أبي.. إنها دانة كبيرة❖.. نعم ولأول مرة..

❖ دانة: هي اللؤلؤ الكبيرة الحجم ثقيلة الوزن.

أرى دانة بهذا الحجم والشكل، التفت إلى أمي وإذ هي تقفز فرحاً حتى نبهها أبي عن ذلك لأنها حامل في شهرها الرابع، قفزت أنا وأخي تعبيراً عن الفرحة نفعل ما تفعله والدتي، وجدتي أسمع شكرها لله سبحانه حملها أبي بين راحة يديه سرنا جميعاً من غير هدى خلفه وكأننا حراس لكنز ثمين، وأنا ما زلت أتأمل أفراد أسرتي، أمي ما زالت مبتسمة، وهي تنظر إلى ما في يد أبي، وها هي جدتي أراها سجدت لم أفهم في ذلك الوقت لِمَ سجدت، ظننتها تصلي، وها هو أخي خلفي لا يدرك الموقف مثلي، وقفنا فقال أبي جملته التي حملتها وساماً على صدري طول حياتي: «عندما بشرت ببكري بنت وهي حمده» قال ليّ أحد أقاربي رزقت بنتاً، فرفعت يدي وقلت «يا رب لا اعتراض على قدرك، يا رب إجعلها بقدر عشر رجال»،

ركضت حينها بسرعة وكأنني أسابق الريح لأتعلق بأبي آخذه بالأحضان، أحسست بعطفه وأبوته وحنانه بكيت على صدره أحس بيده الحنونة على ظهري تطبطب علي ويقول: «كلك خير، وفقك الله يا ابنتي، وجعل الخير مسراك والتوفيق في حياتك..

بكيت بحرارة يمكن لتوي استوعبت وفهمت الموقف، سرحت بدمعة وأنا واضعة رأسي على كتفه، حتى غير الوضع ما كنت عليه غيرة أخي التي أذنتني بالافراج عن صدر أبي، ياه ما أجمل من موقف اختلطت به الدموع والابتسامات ولأن لأول مرة أمر بهذا الحدث وبعد فترة وجيزة هدأت النفوس بعد هذا الموقف العاطفي، الذي لم أعش مثله في حياتي ولا أفراد أسرتي.

أذن العصر، فاستأذن أبي عائلته الصغيرة ليذهب للصلاة، فقال لوالدتي: سآخذ معي الدانة حتى يراها تاجر اللؤلؤ ويقدر ثمنها.

ما إن انتهي من جملته حتى التفت إلي وقد أخفى ابتسامة في طرف فمه وقال: آخ.. نسيت فهذه اللؤلؤة من نصيب «حمده»، أخبريني ماذا تريدين أن أفعل بها؟

قلت: أبي.. هي لك أفعل بها ما تريد..

حينها طبع قبلة على رأسي وقال: «بارك الله فيك، بارك الله فيك».

في هذا العصر السعيد الفريد بساعاته وأحداثه، نظفت المنزل من الأصداف والمحار المفلوق.

نثرت الماء على أرض فنائنا، لكي يكون الجو أكثر برودة، وبعدها خرجت مع جارتي وابنتها لأحضر الماء من الآبار، فأمي اعتزلت ذلك منذ أن حملت في أحشائها جنيناً.

مرت الساعات حتى وصلت بعد العشاء، دخل أبي وهو مبتسم، لقد توجه عصراً لمقابلة تاجر اللؤلؤ، أنظر إليه وهو يسير نحونا وما زالت الابتسامة على وجهه لم تفارقه، وقال: «وعدني التاجر خيراً»، قال أبو سعيد، سيأخذها بعد أيام لسوق اللؤلؤ وسيقابل تاجر آخر ومن ثم يخبرني بثمنها وقد بشرني فقال لي كلمتين «إنها ثمينة».

رفعت بعدها أمي يدها فقالت: «يا رب.. تكون علينا خير لي ولزوجي وأسرتي».

ومرت الأيام بأحداثها المعتادة، ولكن لم يفارق ذاكرتي حدثين أولهما الليلة الذي سمعت فيها بكاء أمي، والآخر اكتشاف اللؤلؤة.

كنت انتظر ما تحمله الأيام من مفاجآت سارة أو ضارة، ولكن هيـأت نفـسي للأمـرين بعـد الإيمـان بقـضـاء الله وقـدره، هـكذا علمتني جدتي عندما أرى أو تقتني صديقتي فاطمة ما هو جديد، ارجع حزينة وألقي هذا اللوم على جدتي: لماذا نحن ليس مثل بيت فاطمة؟!

أذكر حينها تأخذني بيدها وتجلسني أمـامها، ويطربني كلامها الحنون، وتقـول لي جـملتـهـا التي لن أنسـاها: «إن الله وزع الرزق بمقدار، والغنى غنـى النفس، وليس غنى الفلس، والفتى من عمل في هذه الـدنيـا ليـجني في الآخـرة من أعـمـال وتقـوى وصـلاح، ازهدي فيما عند غيرك يغنيك الله سبحانه»

بعدها لم أعد اشتكي ولم أهتم بذلك، فعلاً، عرفت حينها أن جدتي امرأة حكيمة تحسن التعامل مع الآخرين، وتحسن الإقناع بسهولة ويسر.

بدأت أحـاول أن أخـرج من دائـرة التـفـكيـر هذه وأغـيـر حـالي وأحـوالي عندمـا صنعت وأخي أرجـوحـة بداخل فناء البـيـت بين نخلتين، نتـمـرجح عليـهـا وعندمـا يدفـعني وأنا جـالسـة على

الإرجوحة أشعر كأني طائر أحلق في السماء تخالطه الإبتسامات وشعور بالسعادة، أما هو فكانت لعبته المفضلة الصندوق الحديدي يجلس بداخله وأقوم أنا بدفعه فأسمع صراخه وضحكاته وكثير من المرات نزعج الآخرين بذلك.

كنت عصراً أمشط شعر جدتي، دخل أبي فجأة وهو ينادي صارخاً: أم علي.. أم علي..

استجابت أمي للنداء بالركض، ونحن خلفها كانت مذهولة يخالطها بل يخالطنا جميعاً شعور الاستغراب والدهشة فقال: الدانة.. الدانة طلعت ثمينة، ثمينة.. بها سددت الديون التي كانت على عاتقي.. وها هو باقي ثمنها انظري اخرج من جيبه مالاً..

استرجع هذا الموقف مثل ما اكتشفت أول مرة، أرى دموعاً.. ابتسامات.. دعوات.. كل واحد منا عبّر عن هذا الموقف بطريقته الخاصة، حينها فهمت لتوي معنى كلمة «الديون» وقفت أنظر لكل واحد منهم، أبي يقلب بين يديه المال، أمي اغرورقت عيناها بدموع الفرح، وجدتي اسمع شكرها وحمدها لله سبحانه، أما أخي فينظر إلى أشخاصنا ولكن شعوره ليس مثل الآخرين، أما

أنا فشعوري مختلط بين سعادة وانبهار ودهشة، حتى وضع أبي يده على كتفي وكأنه يشدني إلى واقعي وحضوري فقال: الحمد لله، الحمد لله، الله كريم، لم يخيب رجائي، فالتفت إلى أمي وأكمل جملته «حمده بعشر رجال» .

فأطلق أخي جملته السريعة «وأنا بعشرين» اختتم هذا الموقف بضحك الحضور.

وبعد يومين.. خرجت مع والدي وأخي إلى السوق اشترينا حاجات البيت من مأكل ومشرب وملبس، لجميع أفراد الأسرة حتى لم ننس أختي «مريم» وكأننا نشتري حاجات العيد الجديدة، دخلت البيت فهذه أمي تمد يداها لتساعدنا في حمل الأشياء، وكانت جدتي جالسة تعجن العجين أسرعت إليها حاملة قطعة قماش لها، فرفعت رأسها عن إناء العجن فقالت: جميلة، جميلة، ما شاء الله، الله يلبسك ثوب الصحة والعافية، «حمده، تذكرت حديثي، ازهدي فيما لغيرك يغنيك الله سبحانه».

وذاع صيت الدانة بين الجيران والأقارب والعائلة وحتى المطوعة كان لها نصيب من قصة الدانة، فقد أصبحت لي مكانة

عندها محبوبة وتعاملني معاملة خاصة، وإذا فكرت في الأمر كله أحمد الله أن انزاح من صدري هم حملته أشهر طويلة، حتى سارت الأيام لا أبالغ بهذه الجملة «جميلة وسعيدة وهادئة» زارتنا أختي «مريم» وكنا سعيدين بينها إلا أنها تغيرت في طبعها، لم تعد مثل الأول في حديثها وتعاملها وحركاتها، رجعت كأنها شخص ثاني أو تبدلت، فمريم التي أعرفها ظلت هناك، أحسها أصبحت تتحدث وتدير النقاش حتى شكلها تغير في نظري، صرت ملازمة أخي أكثر اقتربت منه أفهمته أن الأخوة جميلة ليست كاملة لا بد يتخللها منازعات أخوية حول لعبة أو تسابق للجلوس بقرب أبي أو من يذهب مع والدتي في زيارة الأقارب ويظل الآخر في البيت قرب جدتي.

وغابت
عن عالمي وجوه

أمـــي...

فرشنا في الطريق لكم قلوبا

أحبت شخصكم حـبا أكيـدا

إلـيـك تحيـــة رقــت وراقـــت

من الأحباب روعـت النشيـدا

جـزاك اللـه في الدنـيا وفـي

الفـردوس يمنحــك الخلـودا*

---

* مقتبس

وتعاقبت الأيام... فاستقبلنا ضيفاً جديداً على أسرتنا. طفل أسمته أمي «عبدالله» تيمناً باسم أبيها، فرحت جدتي به كثيراً، أكثر من والدتي وهذا من المؤكد لأنه على اسم زوجها.

فكان ذاك الضيف محل اهتمام من قبل الأسرة، خاصة أن أفرادها جميعاً نسوا صوت بكاء الطفل الرضيع الذي غير ساعات يومهم من عمل وراحة. ولا أبالغ.. إذا قلت كنت بجانبه ليلاً ونهاراً.. أراه بعيني كأنه دمية ألبي بسرعة كل طلب يخصه بدأت اتثاقل في الذهاب إلى المطوعة لسببين الأول: أفضل أن أكون بجانبه والثاني لشوقي إليه، إلى درجة ذات يوم وبختني جدتي لأنني صرت اتقاعس عن بعض الأعمال المنزلية، والسبب كله يعود لإهتمامي الزائد بأخي «عبدالله» الذي بدوره أثار مشاعر الغيرة في نفس أخي "علي" الذي بدت عليه مظاهر الانزعاج بهذا الاهتمام المتزايد، ولهذا بدأ أبي يأخذه إلى مجالس الرجال يهيئه لمشارف الرجولة. يا لها من سعادة ترفرف على بيتنا المتواضع.

وذات ليلة كنت نائمة.. في فناء المنزل.. إذ بي اشعر بحركة حولي.. أشعر بها ولكني كنت خائفة من فتح عيني كنت أظن

شخصاً غريباً يتجول خفية في الفناء، حتى زادت الحركة وما شجعني على فتح عيني هو صوت جدتي وهي تقول: «سأسقيه هذا الدواء» .

وإذ بي أرى تجمع أبي وأمي وجدتي كنت أمعن النظر إلى هذا التجمع لكني أحسست بضعف النظر أثر النوم الذي ما زال في عيني فأمعنت النظر إليهم وأنا ما زلت في فراشي، وتذكرت أن أخي في الأيام الماضية كان كسولاً.. نعم.. نعم.. منذ يومين لاحظت عليه وهناً وتعباً ظننت أنه أصبح كسولا لا يؤدي المهام الذي عليه وقد اعتقدت أنه أصبح ينظر للأعمال المنزلية التي يؤديها معي أنها ليست من اختصاصه لأنه اصبح رجلاً. لتوي الآن أدركت أنه مريض منذ يومين أو ثلاث فأراه دائم النوم..

"بسم الله عليك".. هذه الجملة نبهتني أرجعتني من عالم الذكريات والأفكار للواقع فقفزت مسرعة إليه وإذ أراه أصفر الوجه وعيناه غائرتان.. لتوه استفرغ الدواء الذي صنعته جدتي من أجله وقفت أسأل: ما به.. هل هو مريض.. ما هو مرضه؟

انتظر الإجابة على تلك الاسئلة ولكن لم أسمع أي أجابة، وإذ

بأبي يمسك بيدي وسار بي نحو غرفته وأجلسني، بجواره، والصمت يملأ الغرفة وجلست أنظر إليه ووجهه كساه الحزن والضيق وإذ به يضع يده على رأسه ليخفي دموع احتبست في عينيه ولكن لم أرها.. ساد الصمت فترة من الوقت حتى بددته تنهيده شقت صدره فتعجبت وانتابني الخوف من الحال التي كان عليها والدي لأنه أول مرة يتأوه شعرت بمرارة الألم الذي يتجرعه، فقلت له: أبي ما بك أخبرني؟

حينها رفع يده من على رأسه وإذ الدموع تطل من مقلتيه ظناً منه إن نزلت تنقص من رجولته وقوته، فقال: ارفعي يدك داعية بالشفاء لأخيك؟ إنه بحاجة إلى الدعاء.

فقلت بسرعة متسائلة أبي.. علمني كيف أدعو له.. ماذا أقول ماذا أقول..؟!

قال هيا أرفعي يدك ورددي معي «ياالله ياالله اشفي أخي علي» .

رددت بعده ما قال فأمرني بعدها أن أعود إلى فراشي للنوم فذهبت واستلقيت عليه وأنا أردد الدعاء حتى غلبني النوم ثانية.

أيقظتني حرارة الشمس التي لسعت وجهي، رفعت رأسي ليطل علي يوم جديد فاندهشت ، وقلت لنفسي، ماذا حدث، لأول مرة أنام إلى هذه الساعة ولا أحد يهتم بإيقاظي، ذهبت مسرعة لأطمئن على أخي لم أجده، حملت فراشي بسرعة وألقيته في الغرفة وذهبت أبحث عن أفراد أسرتي وإذ أجد جدتي بين حضنها أخي الصغير فقلت لها: جدتي أين أخي.. أين أبي وأمي...

رفعت رأسها المشحوب بالحزن وبكلمات قليلة، على لسانها قالت: أخذ والدك أخاك إلى طبيب يوجد خارج المدينة وإن شاء الله سيعودان عصراً..

وسألتها ثانية: ولكن جدتي لِمَ لم توقظيني لأذهب للمطوعة؟

فقالت: ومن يساعدني يا حمده في رعاية أخيك؟

ثم أشارت إلى الفناء وقالت: انظري لم أبدأ في أعمال المنزل والطفل بين يدي انتظرت استيقاظك لمساعدتي.

ومرّ اليوم ثقيلاً على نفسي ولأول مرة أفقد حلاوته ولأول مرة أعيش ساعاته دون أمي وأخي كنت خائفة أنظر إلى الباب

واسترق السمع لدقاته انتظر عودتهم بدون مبالغة بفارغ الصبر، وبقيت هكذا، حتى دخل علينا المساء، فزاد خوفي عليهم لتأخرهم وشغلني التفكير في صحة أخي، أذن المغرب فازدادت، حيرتي ولكني اسرعت أفرش سجادتي لأصلي أثناءها سمعت صوت الباب يُفتح يعلن عن وصولهم، ركضت فرحاً أخذت أمي بين صدري وبكيت نعم بكيت، لم أعتد أن تفارقني في هذه الساعات أحسست بالحنين والشوق، رفعت رأسي ووجهي يعلوه فرحتي وابتسامتي لعودتهم لكن ردت علي أمي بوجه شاحب مصفر تعب حركت عيناً كقطع الدم وبادي عليها حزن شديد، فقلت لها: لماذا تركتوني.. لماذا لم أذهب معكم.. لماذا؟ ..

حتى أطلقت جدتي جملتها فأسكتتني عن العتاب «حمده.. يكفي اتركي أمك إنها تعبة وعلى حسب ظني أنهما لم يذوقا طعاماً منذ الصباح هيا إذهبي وحضري لهما وجبة العشاء».

تراجعت بخطواتي وأنا أنظر إليهم، أبي يهم بوضع أخي على فراشه وأمي ألقت بعباءتها وذهبت للوضوء للصلاة وجدتي خلفها. بعد ساعة من الزمن أعددت وجبة العشاء ولكن لم يمدّ أحد يده عليه نام الجميع مبكراً بعد يوم مليء بالعناء والقلق،

فملأ الهدوء والسكينة البيت، وإذا بي انظر للجميع في فناء البيت الكل مستلقي في سبات عميق. ازحت الغطاء وذهبت لعلي فرأيته وقد تغيرت ملامحه، وجه شاحب هزيل يتصبب عرقاً شفتاه جافتان كان نائم مسكت يده لإيقاظه أريد أن اتحدث معه أريد أن أسمع صوته، ضحكته، لأني افتقدت ذلك، ويا هول ما أحسست به عندما أمسكت يده، كأنها ملقط الخبز وهو على التنور، فتح عينيه أثر ذلك فقلت له: علي.. كيف حالك؟ ماذا تريد مني؟

فقال بصوت خافت لم أسمع كلماته ولكن فهمت من حركة شفتاه أنه يقول أريد ماء؟

رفعته من على الفراش لأسقيه الماء وإذ أرى فراشه مبلالاً بالعرق، نزلت دموعي، أثر ذلك، وعلمت لتوي إن أخي أصيب بمرض شديد وما أن أنزلته أحسست بأمي خلفي وهي تقول: بارك الله فيك يا حمده..

رفعت رأسي فقلت: أمي.. ظننتك نائمة.

فقالت: أين يأتي النوم لي؟ لقد نسيته منذ أيام، المهم صحة علي وعافيته.

ظلت يدي بيد أخي أنظر إليه وأرى وجهه البريء وأنفاسه التي تعلو وتنخفض مرّ أمام عيني شريط ذكرياتي معه، حتى هزت كتفي جدتي فقالت: ارجعي إلى فراشك يا حمده غداً تنتظرك المطوعة.

ومرت خمسة أيام وكل يوم نترقب الفرج في شفاء أخي والبيت أفراده في حزن ولم يطرأ على صحة أخي أي تحسن بل على حسب ظني وعلمي أنه ازداد سوءاً حتى أصبح لم يفتح عينه وفي اليوم التالي ذهبت عند المطوعة فكانت صديقاتي وكل من أراه في الطريق من الجيران يسألني عن صحة "علي". وفي هذا اليوم مضى على مرض أخي تقريباً سبعة عشر يوماً وبعد أن انتهيت من المطوعة أسرعت للبيت، وإذا بي جالسة بعد الظهر مع أخي الصغير في فناء المنزل سمعت صرخة قوية هزت قلبي رعباً وخوفاً خرجت من غرفة والدّي، ما بين الرعب ورعشة الخوف، كنت أريد أن أعرف ممن صدرت .. نعم إنها صرخة أمي، تركت المكان مسرعة نحو الغرفة وقفت عند الباب.. وضربات قلبي تهز جسدي وعيني سقطت نظراتها عند أبي ما الذي أراه... أبي يبكي بحرقة يجهش بالبكاء وأنا عيناي تنتقل بين كل من في

الغرفة إذ بي أرى أمي كذلك فعل أبي، تضع يدها على وجهها وتبكي بحرارة وعطف الأمومة وجدتي تمسح دموعها وتردد جملتها: إن لله وإن إليه راجعون اللهم أجرنا في مصيبتنا واخلف لنا خيراً منها.

ووقفت أسأل جدتي عن كلمة «مصيبة» وأقول «أي مصيبة ما هي المصيبة؟

أخذت برأسي وغرسته في صدرها وهي تقول: وفاة أخيك...

حينها لفت الدنيا بي، وكأنني أصبت بدوار البحر. أحاول أن أبعد رأسي عن صدر جدتي، أريد أن أنظر إليه أريد أن أمسك به.. ذهبت مسرعة عند فراشه وإذ هو مسجي لا حركة ولا نفس لقد أصبح الآن في عالم السكون.. أنظر إليه مرة ثانية وأنا أكذب عيناي من ذلك المشهد.. وأقول حقاً أخي "علي" مات هل هذه هي صور الموت أنا لا أفهمه.. حينها أطلقت صرخة هزت كياني، أدركت بعد أن تأكد لي أن أخي فعلاً توفى. خرج أبي وعيناه مليئتان بحزن نعم وكأنه خرج وهو يمسح دموعه وأوصد من خلفه باب البيت. حينها انتشلتني أمي ورفعتني لأخرج من الغرفة

فتملكني البكاء وأنا القي النظرة الأخيرة عليه ثم خرجت وظلت بقربه جدتي حتى أغلق الباب عليهما فقلت لها: أمي.. لما تركنا "علي"

فقالت جملتها التي أتذكرها جيداً لم نتركه ولكن هو الذي تركنا يا حمده، ذهب لخالقه ومصوره، الحمد لله على كل حال.

أوصلتني لغرفة جدتي فقالت: اجلسي هنا لا أريد أن تخرجي منها حتى أناديك.

بعد ساعات قليلة وإذ بي أرى فناء المنزل امتلأ بالأقارب والجيران، انظر إليهن كل واحدة منهن تأتي وتقبل رأسي أمي وجدتي، أرى ذلك المشهد من خلال نافذة الغرفة أسمع مع البكاء عبارات المواساة وكلمات الحزن، علمت من هذا المشهد إن هذا هو موقف العزاء.. وأنا أنظر إليهن من بعيد سار نظري إلى زاوية الفناء هناك.. انظر إلى الأرجوحة التي صنعناها أنا وأخي وجمعتنا معاً ساعات الضحك والشقاوة نزلت دموعي حينها أدركت أن أخي "علي" لن أراه ثانية فمشاهد العزاء التي شاهدتها أمام عيني تؤكد لعقلي ونفسي إنه رحل من عالمنا.

وفي نفس اليوم ليلاً .. كل واحد منا أخذ زاوية يختلي فيها مع نفسه، وأظن تشاركه ذكريات مع علي ووضعت عمتي العشاء لكنه رفع مثلما وضع، أبي واضع يده على خده، ودموعه ما زالت تنهمر من عينيه، وأمسك بمسبحة يقلبها وكأنه يقلب نفسه وحاله الذي لم يقر له قرار وأمي جالسة في حجرها أخي الصغير ودموعها ما زالت تنهمر من عيناها وجدتي جالسة على السجادة تصلي، تمر ساعات ثقال وكأننا في سجال مع أنفسنا فذهبت لفراشي بسرعة وأسدلت الغطاء على رأسي أخفيه وكأنني أهرب مع نفسي من أحزاني بنوم حتى تغيب هذه الصورة المؤلمة الحزينة من أمام عيني.

واستيقظت من نومي إثر هزة من يد أختي "مريم" رفعت رأسي وأخذتها بالأحضان أبكي على صدرها أسمع نحيبها تقطعه عبارة: إن لله وإن إليه راجعون، وتقول لا تنسي يا حمده إن "علي" لم يغضب أحداً كان مصلياً باراً بوالديه محباً لأخوته، فلماذا تبكي لا بد أن نفرح لأنه ذهب إلى رب عادل رحيم غفور،

ولكنها لم تستطع أن تكمل حديثها، بكت بصوت خرج من صدرها، ثم جلست بقرب أختي وبين الجموع التي أتت تقدم

تعازيها، وفي حقيقة الأمر كرهت من يأتي يبكي على صدر أمي فيوقظ الحزن مرة ثانية خاصة إذا هدأت النفس، لن أنسى مواقف عمتي وخالتي وزوجة خالي في تهدئة أسرتي ومواساتها للتغلب على أحزانها.

ومرت أيام العزاء مثقلة وأوصدنا باب البيت كأننا نعلن نريد أن ننسى هذه الأيام، ومرت الأيام أحاول ألا أتذكرها حتى لا توقظ احساس المرارة والحزن والبكاء، وظلت أختي "مريم" مدة طويلة معنا وقد أضفت علينا ولو قليلاً من الطمأنينة، وراحة النفس، حتى رأيتها تضع حاجاتها وحملتها مع زوجها لعودتهما إلى بيتهما. وفي اليوم التالي أتت عمتي لتقوم بمساعدتنا في أعمال البيت بينما كنت انتقي حبات الرز وإذ بي أسمع عمتي حاملة معها صندوق حديدي وهي تتسائل ما قصة هذا الصندوق يا حمدة؟

اصابني لجام الصمت نظرت إليه وبكيت واجهشت بالبكاء أخذت أمي تواسيني، وعمتي تتسائل عن سبب هذا البكاء السريع المفاجئ، تذكرت أخي "علي" إنها لعبته المفضلة.

فقالت عمتي: ليس له داع الآن ما رأيكن نلقيه في القمامة،

صرخت فجأة وقلت لها: لا يا عمتي لن يكون مصيره هذا المكان سأحتفظ به حتى يكبر أخي عبدالله وأعلمه على هذه اللعبة.

وأنا أحمله كأن الذكريات بدأت تُستدعى وتوقظها النفس استعذت بالله من الشيطان الرجيم كما علمتني جدتي احتفظت بالصندوق، فكان لا يمر يوم إلا وأتذكر فيه أخي، أعلم أنه غاب عن وجهي، فكان الأنس ليّ ولكنني كنت أحاول أن أكيف نفسي مع الوضع الجديد.

ومرّ شهران من وفاة أخي تغير حال أفراد البيت أصبح أبي حزيناً لا يضحك كما كان ولا يتحدث معنا كثيراً، أصبح منعزلاً حتى أخي عبدالله لا يهتم به كالسابق، يأكل بمفرده معتزلاً. أمي بدا عليها التعب خاصة كانت تتحمل السهر من أجل مرض "علي" أما جدتي.. فهي الشخصية الصامدة القوية ظلت تراعي مشاعرنا وأحاسيسنا.

مرت السنون مع حنكة جدتي وزيارات الأقارب استرد البيت

بعض عافيته بفضل من الله سبحانه. وها هو أخي "عبدالله" أصبح بعمر الثلاث سنوات، وفي هذا السن حركاته وحديثه يضفيان الإنس والبراءة في البيت فقد أنسانا بعض الشيء، فاجعة وفاة أخي الأكبر، أخذ شغائف قلوبنا ولكن ظل، وبدأ أبي يسترد قواه النفسية... والحمد لله عاد البيت مثل السابق.

وها أنا أكملت الآن العاشرة وكم شهر، وصرت حريصة على إدارة البيت، أسعد عندما أرى ابتسامة أبي أو أمي بعمل أقدمه للأسرة.. مرت أيام مريحة وهادئة وأسابيع قليلة سأتخرج من المدرسة أكمل حفظ القرآن الكريم. وفي عصر يوم كنت أجهز عجينة الخبز للعشاء يدخل أبي يتوسده رجلان، نفضت من يدي العجينة واسرعت إليهم لأساعدهم وأنا اتساءل ما ألم به؟! لم يستطع الحديث «نعم» لسانه ثقيل ويداه لم يستطع حراكهما سألت والدتي أحدهما فقال: فجأة يا "أم علي"صرخ من ألم في صدره ثم سقط..

تمالكت نفسي وحبست دمعي.. أراه ينظر إلينا وعيناه تريد أن تتحدث عن الكثير ولكن لسانه عجز عن النطق بكلمة واحدة، وسألت أبي: ما بك أبي؟! ماذا تريد؟! بماذا تشعر؟!

اغمض عينيه كأن يأمرني بالتوقف عن الاسئلة.. رجعت إلى عجينتي انظر إليه وأقول يا ترى ماذا يدور في نفسك.. سمعت أمي وهي على سجادتها رددت وراءها ما تقول دمعت عيناها وأحدث نفسي كم أجرك عظيم، على صبرك لكل هذه المصائب التي ابتليت بها «الحمد لله على كل حال».

دق الباب وإذ عمتي وزوجها فسارعت بخطواتها نحو أبي وصوت بكائها عال أزعجت جدتي فقالت مستنكرة: «أم محمد هداك الله، الحمد لله إنه بخير» وأرى والدي كأن نفسيته أفضل عندما رأى أخته قريبة منه.

وفي اليوم التالي استيقظت للصلاة، وكنت مشغولة الفكر على صحة والدي فترددت في الذهاب إلى المطوعة أشعر بضيق لا أعلم ما بي هذا ما قلته لأمي وما أن سمعت جدتي إنني تقاعست عن الذهاب فأمرتني بالذهاب خاصة أشهر قليلة وأنهي مرحلتي القرآنية.. وكالعادة مررت عليّ صديقتي "موزة" وأنا في الطريق أحسست بشعور يخيفني ولكنني تغلبت عليه، مطمئنة نفسي، لأنني لتوي ودعت أبي وهو يتمتع بصحة وعافية أفضل بكثير من الأمس. جلست بين صديقاتي وأنا أنتظر اللحظة التي تنتهي فيها

المطوعة، تسارعت خطواتي بالعودة إلى البيت أشق الطريق لأصل بسـرعـة فـالإحـسـاس يحـملني إلى فـراش أبي نقلت شـعـوري لصديقتي "موزة وفاطمة" وحاولتا تهدئتي بأن والدي بخير، ولكن لم اقتنع بإجابتهما.

أخذت خطواتي عزيزتي القارئة تتسارع كالريح أريد الوصول إلى البيت، بالرغم أن المسافة ليست بعيدة، دخلت البيت، وصدق أحساسي، صوت زوج عمتي وهو يقول لأبي لا إله إلا الله، محمداً رسول الله.

حينها تسارعت ضربات قلبي وحين رأيته على فراشه همداً، شعرت برهبة هذا المشهد فأسرعت نحوه، ووضعت رأسه في حجري. لم فعلت هذه الحركة لا أعلم؟

نظر إليّ يتمتم بكلمات لم أفهمها جلست أمي في الجانب الآخر تسقيه الماء وزوج عمتي حزين وعمتي تبكي. كنت أحدثه ستقوم بالسلامة، وسأبحث عن دانة أخرى وسيعم البيت سعادة تذكر قصة الدانة أتذكرها.. أبي هذا عبدالله ينظر إليك يريد أن يلعب على صدرك، أبي أسابيع وأختم القرآن الكريم.. والجميع

أمـامي في سكون ووجـوم. أمسكت يده وإذ هي باردة كـالثلج رفع اصبعه السبـابه وأخرج من صدره زفير قوي حتى صرخ الحضور معاً لم أفهم مـا السبب لم أدرك أنه في هذه اللحظة توفي مسكت عمتي بكتفي فقالت لي: هيا .. حمده اتركي إبيك الآن،

فقلت لها : هل أحضر وجبة غداؤه الآن..

حتى أجهشت بالبكاء فقالت: حمده أبوك مات.

قلت: لا ... لا .. لا تقولي عمتي أرجوك لم أشبع من حنانه، أبي لا يتركنا..

شدتني حتى تضع رأسه على الوسادة، أمسكت بثيابه، شدتني بقوة وأنا أصرخ.. اتركيني.. اتركيني.. ومـا زلت متشبثة بثيابه بيدي.. حتى طلبت عمتي من زوجها مساعدتها لتخليص يدي من ثياب أبي.. حملتني عمتي وأنا أنظر إليه.. وابكي وأقول: أبي لا تذهب أبي لا تفارقنا.. لا تفارق أحبتك.. كما فارقنا أخي.. كيف سأعيش من دونك الآن..

سحبتني عمتي إلى الغرفة وتركتني بها وأحكمت غلقها.. انظر من النافذة وأبكي.. نعم .. بكيت بكاء مراً ليس كما كان عند وفاة

أخي.. لا أعلم عن نفسي لماذا؟ محتمل عند وفاة أخي كنت أصغر سناً لم أعرف مفهوم الموت والآن فهمته، لتوي بعد تلاحق الحدث.. أمي أين اختفت.. وقفت أطل من الشباك.. لم أرها..

وصار بين عيني في أرجاء الغرفة أخي يلعب ولا يعلم من أمره شيئاً زاد يأسي، أخذت أنادي «عمتي، عمتي.. أرجوك افتحي الباب» بعدها بلحظات دخلت علي وهي غاضبة أمسكت بي وقالت: حمده.. اهدئي، الصراخ لن يرجع أبيك للحياة .

وضعت يدي على أذني لا أريد أن أسمع ما تقول واستمرت في كلامها أبوك الآن.. يريد منك الدعاء له اسمعتي..

بعدها أرغمت نفسي على السكوت جلست على الأرض ودموعي بللت خدي انني الآن في غرفته وهذه ثيابه وهذه عصاه.. كيف تشعرين عزيزتي الغالية معي بهذا الموقف.. حينها رفعت يدي ورددت الدعاء الذي قالته جدتي عند وفاة أخي «إنّا لله وإن إليه راجعون، اللهم أجرنا في مصيبتنا واخلفنا خيراً منها»

هدأت نفسي التي كانت ثائرة كأنني أتجرع دواء السكينة والاسترخاء لا أقول لك إنني توقفت ولكن هدأت نفسي وسكنت

روحي ومرت ساعات ورجع المنظر الذي كرهته عند وفاة أخي رجع ثانية عند وفاة أبي. نعم غابت عن عالمي وروحي وجوه أحببتها مثلما هي أحبتني جمعنا الحزن والفرحة والابتسامة والدمعة اقتسمنا معاً اللقمة.. يمر الشريط أمام عيني فيعتصر قلبي وتدمع عيني ففي كل زاوية في البيت اتذكر اثنان لهما كل حبي ولهفتي هما "أبي وأخي"، رجعت بعد مرور أيام، رجعت أتساءل يا جدتي إني أشتاق إليهما كثيراً، ماذا أفعل تجاه هذا الشعور؟!

فقالت: لا يريدا منك الا شيئين يا "حمده" اذكريهما في دعائك وصدقتك فأخذته نهج في حياتي عندما تغيب عن وجهي وعالمي وجوه أحببتها أرفع يدي بالدعاء والاستغفار.

لقمة العيش

كن كبدر الليل أنور

كن كحجم الكون أكبر

لا تكن حلماً قصيراً

فثواني العمر أقصر*

---

* مقتبس

وها هنا في رحى مع الأيام والليالي، كان البيت زاخراً بخالتي وعمتي ويتفقد أحوالنا خالي... لكننا نفتقد تواصله عندما يذهب لرحلة الغوص فهو يجمع شمل العائلة فالتفافنا حوله يضفي في أنفسنا الطمأنينة والآمان، وأختي لازمتنا في البيت تنتظر مولودها.. وأمي دخلت في عدة وفاة الزوج لم نشعر بالوحدة أثر وجود خالتي وعمتي وأختي وطفلها فعشنا الحياة بوجهيها أيام نسعد بها وتسقينا حلوها وأيام نشقى فيها نتجرع مرّها. أدعوا لكل من وقف معنا في هذه الأيام فالإنسان لا يحتاج إلى من يطعمه ويرويه لكن يحتاج إلى إناس تتفقد أحواله وتسأل عنه وتشعره أنه موجود في هذه البقعة من العالم.

رجعت مريم إلى بيت زوجها حاملة طفل جميل وأيضاً حاملة بداخلها قلقها علينا كذلك رجع خالي لرحلة الغوص وخالتي رجعت لبيتها وأيام قليلة وأنهي ختم القرآن الكريم.

وفي ساعة كنت جالسة ألاعب أخي، دخلت جدتي وقالت: حمده من يوم غد لن تذهبي إلى المطوعة،

أجبت على مقولتها بإبتسامة ظننت أنها تمزح، فقالت: ما هذه الابتسامة إنني أتحدث بجدية.

قلت: لماذا يا جدتي وما الذي حدث؟

أخذت بيدي وقالت: إجلسي حبيبتي تعلمين أن والدتك في عدة الوفاة. وخالك إذا كان موجود لن يتأخر في تقديم العون والمساعدة ولكننا نفتقده أثناء ذهابه لرحلة الغوص.. هيا لأريك غرفة المؤونة فإنها فارغة.. ما رأيك يا حمده فالمطوعة تحتاج إلى المال، كما إنك تقضين معظم النهار معها فمن يأتي برزقنا وحاجاتنا.

قلت لها: أين زوج خالتي، زوج عمتي.. ألا يستطيعا أن يقدما لنا يد العون والمساعدة.

فمسكت بيدي فقالت: لقد قلتها يا حمده المساعدة.. وإلى متى سيقدمان لنا المساعدة؟.. أم ننتظر حينما يكبر أخوك ليتحمل المسئولية.. أليس من الأفضل والمعقول أن نتحمل نحن مسئولية البيت. لأن زوج خالتك أو زوج عمتك إن ساعدانا في هذا الوقت

لن يستطيعا أن يساعدانا طول العمر.

فقلت لها: يا جدتي أيام وأنهي ختم القرآن الكريم أرجوك،

فقالت وهي تضرب كف على كف: «يا ليت ولكن ليس لدينا حل آخر» .

واسترسلت في حديثها وعينها تدمع فقالت: لم يتعود هذا البيت السؤال من الآخرين بل يعمل ويكدح للحصول على لقمة العيش أفضل من السؤال ماذا تقولين يا ابنتي الغالية.

وقفت مع نفسي لحظة حيث بداخلي صراع بين مؤيد ومعارض لرأيها وما إن مسحت دمعتها حتى ألقيت نفسي على صدرها وأبكي فقلت لها: عليّ يا جدتي السمع والطاعة وإذ كان هذا الأمر خير للأسرة فلن أتراجع.

دخلت أمي حاملة بإبريق الشاي وهي تضحك: هل لديكن أسرار تخفيانها عني.

قالت جدتي: لا .. ولكن لدينا مفاجأة لك فأخبرتها جدتي بالقرار،

فـعـبس وجـه أمي وقـالت لجـدتي: كـيف يا أمي تخـرج من المطوعة،

فـردت عليـها بنبرة فيـها حنان «أم علي .. ناقشت الأمـر مع ابنتك وهي موافقة»،

إلتفتت أمي عليّ وضعت يدها على رأسي تمسحه وتقول: هل أنت راضية كل الرضى؟

فـأمسكت بيدها وقبلتها وما زالت دموعي في عيني: نعم يا أمي إذا كان الأمر صالح لهذا البيت فأنا راضية.

رفعت أناملها لتمسح دمعة نزلت على خدي فقالت ووجهها باسم إذن ما سبب الدمعة يا حمدة التي أراها في عينيك،

قلت: مـا يحـزنني أنني لن أرى صديقاتي، وكم تمنى والدي أن أكمل ختم القرآن الكريم وأتعلم القراءة والكتابة،

لم تعقب على حديثي حملت بأكواب الشاي بصمت وخرجت إلى فناء البيت.

جلست أفكر في نوع العمل الذي سأقوم به وأجني منه الدراهم

وما العمل الصالح لي، حيث إنني لا أتقن حرفة أو مهارة محددة. فشاركتني جدتي في التفكير من خلال طرح الأسئلة المختلفة لكننا لم نصل لقرار.

وفي اليوم التالي كان الصباح غريباً على نفسي أتت صديقتي "موزة" تدق الباب فخرجت لها جدتي لتخبرها بعزوفي عن إكمال تعليمي، فتواريت خلف الباب أنظر من خلفه على صديقاتي وهن يبتعدن نزلت دموعي وأنا لا أشعر بها وحاولت بعدها أن أخفي هذا الشعور لأن بالأمس أبديت القبول بهذا العرض أتذكر جيداً أن أول عمل قمت به أنني تسلقت النخلة لأجني الرطب منها وهذا فيه من المشقة الكثير خاصة إذا كان الجو حاراً جداً ورطباً، وما زال يدور بخاطري سؤال ما الذي سأصنعه؟ نزلت وقد رزقني الله رزقاً وفيراً.

أمرتني أمي أن أذهب بحصة منها إلى الخالة «عائشة» حملت طبق الرطب وأنا سعيدة وخاصة لما للخالة صاحبة هذا البيت من منزلة عظيمة في قلبي لما لها من معروف في المحن التي عصفت ببيتنا وسخائها في الأعياد والمناسبات.

بعد السلام عليها، أمسكت بيدي واحتضنتني فقالت: أين أنت يا حمده؟ لم أعد أراك، هزت رأسها وكأنها تنبهت لشيء غفلت عنه وقالت: أين المطوعة اليوم؟

اعتصرني الضيق حتى بدا على وجهي وألحت بالسؤال فأخبرتها بما دار بيني وبين جدتي فأمسكت بكفي وقالت: هذا عهدي بك يا حمده أنت ممتلئة خير وبركة. خذي هذه الدراهم لعلها تسد حاجة اليوم.

أغلقت يدي لأبدي رفضي لطلبها نظرت إليّ بتعجب وقالت: لماذا؟ اعتبريها هدية.

قلت لها: نعم يا خالة عائشة أقبل الهدية ولكن لا أقبل الصدقة.

قالت: كيف، فسري لي ذلك؟

قلت لها: هديتك في الأعياد وليس هذا وقتها خاصة بعد علمك بقرار جدتي، بل أريد منك مساعدتي في الحصول على عمل يناسبني لقد فكرت أنا وجدتي لكننا لم نصل إلى شيء.

فقالت: نعم لقد وجدتها، أمسكت بطبق الرطب وقالت: من أحضر هذا

قلت لها وأنا متعجبة على سؤالها: أنا،

فقالت: ما رأيك إذا أحضرت لي كل يوم مثله مقابل دراهم أنت تحددينها

قلت: لا .. لا .. هذا الطبق هدية من والدتي

قالت: وهي تحاول جاهدة لإقناعي «حمده» هيا لتعددي معي الآن كم امرأة في الحي في مثل ظروف والدتك فقدن العائل لبيوتهن..

وأدركت أن هناك الكثير من البيوت في مثل هذه الظروف، فعددت خالتي أربع بيوت أو خمسة، حينها قالت: أنا يا حمده في مثل ظروف والدتك...

قلت: ماذا؟ ماذا تقولين يا خالة؟

فقالت: نعم يا ابنتي انظري لزوجي فهو كبير في السن لا يستطيع أن يؤدي واجباته المنزلية فلذلك أنا بحاجة لمن يحضر

مستلزماتي، لدي المال ولكن ليس لدي العائل الذي يأتي بحاجاتي من السـوق وانظري إلى النخل في الفناء يذبل ثمـاره ويموت ولا أستطيع أن أقطعه لأني لا استطيع الصعود لأقطفه.. لو قمت بهذه الأشياء ألا يعتبر ذلك عمل مناسباً لكِ تستطيعين أن ترتزقي منه لسد حاجة البيت من طعام وشراب رفعت بأصبعيها حبة البلح وقالت: تفضلي هذه.. إنه من خير بيتكم.

حملت بالوعاء.. وبداخلي كلمات الخالة عائشة، عدت إلى الحي أفكر كم بيتاً بحاجة إلى مساعدتي، أووه خدماتي وكم بيت بحاجة للمال، رجعت إلى البيت تخالطني الأفكار للوصول للقرار الصواب.

فعرضت ما قالته الخالة عائشة ويدور بداخلي هل تنجح فكرة الخالة، الحمدلله لم يستنكر أهلي بل أثنى عليها وأيداها. ذهبت بعد هذه المحادثة إلى غرفة المؤونة اتفقد ما بها فعلاً الزاد بدأ ينفذ وها هو الحل دق على الباب فأنا متأكدة إنها الخالة أتت الجواب لتعرفني البيوت التي أذهب إليها.

وفي الصباح ذهبت لبيت «أم عبيد» فرحت بالفكرة فقالت:

لدي حاجات في السوق كل أسبوع، ما رأيك تحضريها ليّ بمقابل قدر من المال .

ونجحت عند بيت «أم عبيد» وذهبت للمنزل الآخر بيت «أم عبدالرحمن» وها هي تريدني أجني لها ثمار الرطب من النخل هذه نوعية عمل آخر أؤديه وبيت «أم راشد» تريد مني أن أقطع لها خشب للتنور والبيت الأخير هو بيت الخالة «عائشة» ليس عملها محدد كل يوم تريد مني أن أؤدي في بيتها عمل مختلف رجعت البيت عند أذان الظهر وفي جيبي قدر كاف من المال أمسكت جيب فستاني لا أصدق أن لدي قدر من المال يستوفي لو القليل من حاجات البيت.

أقبلت بالدراهم وأنا سعيدة بذلك فأخبرت جدتي بما قمت به خلال هذا اليوم من أعمال، وأمي التي صنعته اليوم اثنى علي ولكن دائماً أمي تذكرني بما قالته من قبل أن البيوت أسرار ولا يزيغ بصرك عن عملك ولا تفشي أسرار البيوت وخلقك عنوان تربيتك هذه النصائح حفظتها عن ظهر قلب.

وذات يوم ذهبت السوق لأحضر أغراض لبيت «أم عبيد» سرت في الطريق وإذ بي بجانب المطوعة فسمعت صديقاتي يرددن الآيات الكريمة، ذرفت دموعي، نعم بكيت وتأثرت بدأت وسوسة الشيطان تحيك في نفسي تقول انظري لحالك الآن، لو كنتي معهن الآن، بسرعة استعذت من الشيطان فأسرعت قدماي هرباً حتى لا تسمع أذني وتشتاق نفسي ويحن قلب لهذا المكان، ورجعت إلى البيت يعتصرني الحزن والألم، فشعرت بذلك أمي فأتتني مسرعة وقالت: ما بك يا حمده؟

قلت لها: لا شيء.. لا شيء أحاول أن أخفي وجهي خوفاً أن تسقط دمعة من عيني.

قالت: أتظنين أني لا أشعر ما بداخلك ادارت وجهي نحوها بيدها وهي تنظر لعيني، وقالت: أنت ابنتي البكر التي فرحت بمقدمها واستبشرت بك خيراً لا تظني أني لا أحس بما تفكرين فيه.. حمده.. قلب الأم ليس كقلب إنسان آخر قلب دفاق المشاعر، وجابر الخواطر، يسهر لتنامي ويجوع لتشبعي ويتعب لترتاحي، فكيف الآن لا أعلم ما بداخلك يا ابنتي من يحمل همك غير أمك

بهذه الكلمات اهتز جسدي وأصابتني القشعريرة، ألقيت بجسدي على صـدرها أبكي، طبطبت على ظهـري وقـالت: إبكي إذا لم تمسح دموعك أمك فمن سيمسحها؟!

قلت لها وأنا أبكي: أمي.. إشتقت للمطوعة وصديقاتي.. أقض النهار بطوله في العمل لا وقت عندي أن أرى صديقاتي.. اتحدث إليهن.. ألعب معهن لم أكمل شكواي حتى أسمع بكاء أمي، رفعت رأسي من على صدرها وإذ أراها تبكي بحرقة يحمل دموعها الإنكسار فقالت لي: أعلم ذلك فأنت منذ نعومة أظافرك لم تعيشي مثل بقية الفتيات ولكن ليس بيدي حل آخر. فكم قلبي يتمزق من أجلك لكن لتعلمي أن كل خير تقدمينه إلى أهلك الله سبحانه يجزيك به خيراً، ولتصبري فعند الله سبحانه الفرج وأحسني الظن بالله سبحانه يا حمده وبعد الليل القاتم هناك فجراً باسم.

وبهذا الحديث سكنت نفسي واطمأن قلبي ولملمت جراحي. بعدها لم أعدّ أضجر من وضعي وأحاول أن أطوي ذكرياتي الأليمة.

ومرت الأيام وفي ساعة كنت أسير في طريق العودة إلى البيت حاملة بحاجات للبيت وإذ من جانب الطريق الآخر أرى صديقاتي فدق قلبي ورفرفت مشاعري بلهفة الشوق والحنين ألقيت عليهن تحية الإسلام فرددن على التحية ومن بين الأصوات صعقت بضحكة عالية فاسترقت سمعي لأرى من تضحك بدلاً من أن ترد على تحية السلام وإذ هي صديقتي فاطمة نظرت إلى ملابسي وقلت لها وهي ما زالت تضحك: ما الذي يضحكك؟

فقالت وهي تتحدث بغرور وتكبر تشير إلي: منظرك مضحك وأنت حاملة بهذه الأشياء وتلفي وتدوري بين البيوت طوال النهار فقالت صديقتي موزة لفاطمة: كفى.. كفى ما هذا القول.

أنزلت حاجاتي على الأرض وقلت لموزة: دعيها لتكمل حديثها.

فأكملت فاطمة: ألا تشعرين بالخجل من نفسك

فقلت: وما العيب في ذلك لا أشعر بالخجل لأنني أعمل بشرفي وكرامتي، فالعمل الشريف ليس عيباً،

فقالت: أنت مسكينة، وتقدمت بخطوة تريد أن تمشي أمسكت

بكتفهـــا وأدرت وجهـهـا نحوي فقلـــت: إذا كان هناك مسكين بيننا فأنت،

اكفهر وجهها وقالت: ماذا تقولين؟

أنا مـسكينـة أنا الحـمـدلله أبي غنـي، تاجـر، انظـري إلى بيـتنا المليء بالخيرات وليس مثلك.

وشددت يدي على كتفها وقلت: اللهم زد من نعمك ولكن هذا لا يمنع أن نكون متواضعين، محبين للناس.

هزت كتفها بقوة حتى أفكك يدي منه ولكن أبقيتها على ما هو عليه فأكلمت: ليس عيباً في الإنسان أن يعمل ليعول أسرته تقولين أبيك تاجر فهو يعمل وأنا أيضاً أعمل فكلنا سواسية والاختلاف في نوعـيـة العـمل. يا فـاطمـة الرزق لا يقف عند أبواب البـيـوت ويطرقها حتى ندخله إنما نحن نسعى إليه.

والأنبياء كانوا يعملون بين نجار وراعي غنم. وما هـو العيب في ذلك، من سـعى في رزقـه أفـضل من أن يسـأل النـاس، ونصـيـحـة أقـدمهـا لك وللجـمـيع من تواضع لله رفـعـه، هـزت كـتـفيـهـا بقـوة وأمسكت بيدي لترفعهما عنها فقالت: وفري نصائحك لنفسك.

أدرت بظهري لأرفع حاجياتي من الأرض، بعدها استقبل ظهري ضربة قوية هزت أعضاء وعظام جسدي، لم أتمالك نفسي لهذا الموقف، فأنقضضت عليها لأضربها على فعلتها بين صرخات صديقاتي واستنكارهن، رديت على هذا الاعتداء الغاشم بضربة قوية استجمعت من خلالها قواي فطبعت على خدها ضربة قوية، ومن ثم دار شجار بيننا في شارع الحيّ حتى تجمع رجال الحيّ وشبابه لفك هذا الاشتباك، وصرت بين مؤيد ليّ ومعارض وكأني في وسط دائرة تلف بي. تبعثرت الأكياس، وإذ بيد تنتشلني من وسط هذا الصراع وهي يد الجدّ «أبو سيف» أخذني وحمل أغراضي وهو يعطي ليّ دواء الهدوء من الكلمات الطيبة بعد أن قال: استعيذي بالله من الشيطان، سرت معه ودموعي ودمي من لثة أسناني تنزف وأنا اشتكي له تصرف فاطمة.

قال: هل أنت راضية عن العمل الذي تؤديه من أجل أسرتك،

قلت: نعم،

قال: لا أسمع ما تقولين،

رفعت بصوتي نحو إذنه وقلت: نعم راضية.. نعم راضية،

فقال: هل عملك يخالف الدين والشرع؟

قلت بصوت عال: لا.. لا..

قال: إذن لماذا كل هذا الغضب؟

فهدأت نفسي، فذهبت إلى البيت وأسرعت لأغسل وجهي وأسناني قبل أن يراني أحد، وإذ بي أسمع ضربات قوية على الباب فخفت وبدأت تراودني الأفكار فكرة تلو الأخرى لا أريد أي شكوى عن تصرفاتي لجدتي ووالدتي لا أريد أن أحملهن أكثر مما يحملاه من متاعب، خرجت جدتي لفتح الباب تظن أنني لم أصل إلى الآن إذ «أم فاطمة» تصرخ في وجه جدتي وتلوح بأيديها وتهدد وتتوعد وجدتي متعجبة وغير مستوعبة ما يحدث وما تقوله «أم فاطمة» فخرجت مسرعة فقالت ليّ جدتي: متى وصلت؟

قلت: لتوي.. فقلت «لأم فاطمة» هي البادئة والتي أخطأت في حقي والبنات يشهدن بذلك، فأنا لم أفعل شيء حرام يخالف

الدين ولا الشـرع أو يقلل من شأن أهلي حتى ابنتك تستـهزأ بي، وهل من يبحث عن رزقه بالحلال يضحك عليه الناس أم يأخذون بيده ويشجعونه، سكت لأسمع تعقيبها على حديثي لكنها لم ترد.

همت لتدير ظهرها تريد أن تمشي لكن أوقفتها يد جدتي لتحاسبها على ما بدر منها من أقوال وأفعال، فقالت: أم فاطمة لا أراك الله أياماً تعيشينها دون رجل عائل للبيت، خرجت أم فاطمة دون أن تتفوه بكلمة. سرت إلى المطبخ مسرعة لأحتمي به لأني مدركة أنني سأقف أمام محاكمة جدتي لمعرفة أحداث الواقعة، ويتبعه عقاب على تصرفي.. وها هي جدتي أسمع نداداتها لي وحتماً ستبدأ بعد ثواني دائرة النقاش «حمده... تعالي إلى هنا» .

سرت لها وأنا متيقنة أن جدتي تحكم بالحق. واستوضحت لها الحادثة كلها فقالت وهي تطبطب على كتفي: إن كنتي صادقة في كل كلمة قلتيها، فأنت لم تخطئي المهم مرة ثانية تمالكي نفسك في وقت الغضب ولا تردي الاساءة إلا بالإحسان.

وبعد مرور ساعات اليوم عصراً، أخذت بأواني الماء كنت هامة للخروج لجلب الماء. وإذ بي وأنا عند الباب أجد «أم فاطمة»

وابنتها. استغربت من وجودهما فقالت: «حمده.. نادي جدتك وأمك».

ذهبت لاستدعائهما وأنا متحيرة لسبب مجيئهن.. ما الذي تريده «أم فاطمة»؟ فدعوتهما بالدخول داخل البيت، أرى «أم فاطمة» فرحه مبتسمة انظر بدهشة لوجهها الباسم أمرتني أمي أن أحضر القهوة والرطب وهذه ضيافتنا الأولى لإكرام الضيف.

ذهبت مسرعة حتى لا يفوتني هذا الحدث الذي اعتبره عجيب وواقعة غريب على نفسي وها هي «أم فاطمة» اسمعي قارئتي العزيزة معي ماذا قالت: «إن ما حدث اليوم وما صار بين ابنتي وابنتكم.. أعطانا درساً في حياتي فقد ايقظ ضميري فكانت نفسي مملوءه بالغرور والتكبر والتعالي على الناس وكنت أقيس الناس بما يملكون من المال لا بما يملكون من أخلاقيات وضمير يقظ، فرجعت من عندكم ظهراً حينها توقف لسانها عن النطق بعدها التفتت إلى جدتي وقالت: قد زالت الغمامة من وجهي، وأدركت أن ما عشته وما ربيت عليه ابنائي كان خطأ وأن حب الناس هو الباقي، مسكت بيد جدتي وقالت: اطلب الصفح والسماح..

وها هي ابنتي اقتصصن الجزاء منها. طبطبت جدتي على يدها وقالت: المسامح هو الله سبحانه ونحن نسينا الموضوع ظهراً، وزيارتك أكبر دليل على أسفك، ونحن جيران وأعرف والدتك رحمها الله من أفضل الناس. واعتبرك مثل ابنتي..

مسحت أم فاطمة دموعها ثم أخرجت من جيبها قلادة من الذهب وقدمتها ليّ، وقالت خذي يا «حمده» هذه هدية لك.

نظرت إليهما وقلت إليها لن أقبل هذه القلادة فقالت: هذا دليل شكر لك لأنك ايقظتي ضميري،

انتقلت نظراتي بين جدتي وأمي فقالت جدتي: أعرف «أم فاطمة» قلبها كبير، وأعرف نيتها الحسنة في ذلك إنها هدية ولا تقصد شيء آخر،

بعدها رفعت إبنتها يدها ليّ لتصافحني أخذتها بالأحضان وكان العناق حاراً بيننا سمعت بعدها ضحكات السرور والإرتياح. أمسكت الهدية أقلبها فقالت «أم فاطمة»: دعيني أقلدها لك.

أحسست حينها بفرحة أعتبرها من أجمل لحظات حياتي مثل

حدث الدانة ولكن هذا الموقف له مذاق خاص. وبعد هذه الجلسة الرائعة استأذنت جدتي والضيوف لأخذ أواني الماء. فقالت «أم فاطمة»: ما رأيكن في شخص يجلب إليكن الماء فأنا لدي من يحضر لي الماء كل يومين سأحسب حسابكن، ألتفت إلى أمي: ما رأيك «أم علي» ويشهد الله سبحانه أنه ليس بصدقة أو معروف إنما اعتبركم مثل بيت أختي.

نظرت أمي إلى جدتي منتظرة قرارها حيال ذلك. فقالت جدتي: «أم فاطمة» خيرك ما شاء الله كثير، ولكن حسب ظني «حمده» تجد متعة في ذلك خاصة إنها طوال الضحى لا ترى صديقاتها فخروجها لجلب الماء متنفس لأن ترى صديقاتها، أشكرك يا الغالية نشكرك ولا ننسى جميلك.

وضعت عباءتها على رأسها ووقفنا لتوديعها عند الباب حتى قالت فاطمة: حمده هل أستطيع أن أزورك؟

قلت لها: طبعاً ألست الآن ابنة خالتي فضحكت «أم فاطمة» ضحكة قوية وبهذا انتهى الخلاف وتعمق الحب بداخلها.

وفي الليل من نفس اليوم أخذت أقلب الهدية أمام والدتي فقلت لها أمي غداً سأذهب إلى الخالة «عائشة» لأريها هدية الخالة «أم فاطمة» فقالت بعد أن قرصت خدي: كم أغار من حبك لها كل شيء يحدث ينقل لها فتبعتها بضحكة

فقلت لها: حقاً أمي تشعرين بالغيرة منها

قالت: أضحك معك أعلم إن حبك ليّ في أعماق قلبك أصحيح كلامي

وضعت رأسي على حجرها قلت لها: «يشهد الله على ذلك يا أمي فأنت الشخص الذي يرتاح قلبي له وتطمئن معه نفسي، أطال الله بعمرك يا أمي،

وضعت رأسها فوق رأسي وكأنها تهمس في إذني فقالت: أنت رائعة يا ابنتي الله يستر عليك دنيا وآخره، ويبرونك أبناءك مثل ما تبريننا، الله يرضى عليك وأدعوا الله العلي القدير أن يطيل بعمري وأرى أبناءك وأحفادك.

حككت وجهي بيدي حياءاً من حديثها وأخفيت مشاعري فضحكنا انتعشت نفسي بالفرح.

ومن يوم غد ذهبت مسرعة إلى بيت الخالة «عائشة» أخبرها بما حدث بالأمس وحملت معي القلادة لتراها. دخلت عليها إذ هي مستلقية على الفراش سألتها عن صحتها فعلمت أنها مريضة منذ يومين جهزت لها الطعام ورتبت لها البيت وسألتها عن زوجها فقالت: ذهب لأقاربه منذ يومين وسيرجع اليوم عصراً.

ولكن كان بادي على وجهها الضيق فظننت بسبب مرضها حتى أباحت عن سبب ضيقها فقالت: حمده عليّ أن أسلم طلبية الثياب بعد يومين وأنا متضايقة لم أنتهي بسبب المرض،

قلت لها: كيف أساعدك يا خالة «عائشة» إني لا أتقن الخياطة.

فقالت: أنا أقص وأنتي تخيطين لأني لا استطيع الجلوس.

قلت لها: إن شاء الله .. هيا علميني ماذا أصنع؟!

وجلست معها إلى صلاة الظهر حتى تعلمت الخياطة واستمتعت بها. ورجعت ثانياً للخالة «عائشة» عصراً حتى أكمل عملها سعدت الخالة «عائشة» لأني اتقنت الخياطة وعرضت علي

بأن أساعدها في هذا العمل مقابل أجر اتقاضاه وافقت على الفور ولأول مرة أعطيها رأي دون الرجوع إلى أمي وجدتي.

ومرت الأيام حتى اتقنت الصنعة وأول شيء فعلته بأجري أدخرت مبلغ من المال حتى اتمكن من شراء ثوبين لأمي وجدتي، وتكون مفاجأة لهما وفعلاً اشتريت القماش من الخالة «عائشة» بعد إلحاح عنيف حتى قبلت ثمنها، وبدأت أخيط لهما وكنت سعيدة ومتشوقة لمعرفة رد فعلهما عندما أقدمها لهما.

وبعد أن انتهيت أخذتهما بسرعة إلى البيت كان رأي الخالة «عائشة» انتظر العيد لأقدمها فقلت لها: صبري لا يتحمل ذاك اليوم لأن الشوق يكتوي نفسي لمعرفة رأيهن، آه وأذكر ذلك اليوم المميز عندما ذهبت إلى البيت وهما جالستان في فناء البيت جدتي تقطع اللحم وأمي تنقي حبات الأرز، تنظرا إلى ما أحمله من بعيد غير مدركتا ما أحمله فقلت لهما وأنا واقفة: جدتي.. أمي.. لأول مرة في حياتي أصنع شيء لكما.

رفعت جدتي نظرها إليّ بعد أن وضعت السكينة فوق قطعة اللحم وأمي تنظر إليّ لتستفهم ما أقول.

مددت يدي إلى الأمام تعلوها ابتسامة كبيرة إنهما فستان لكل واحدة منكما لقد خيطته بيدي، قالت جدتي بعد أن رفعت حاجبيها متعجبة وغير مدركة ما أقول: ثوبان وهل تتقنين الخياطة؟

قلت لها مسرعة وتغمرني السعادة والابتسامة العريضة التي رسمت على وجهي محاولة اغلاق فمي لاخفاء تلك الابتسامة: نعم.. منذ شهر تعلمتها على يد الخالة «عائشة».

وضعت أمي صينية الأرز من على أرجلها وتقدمت ليّ لترى هذه الهدية المفاجأة لها، أما جدتي فتحركت وأسرعت بخطواتها نحو وعاء الماء لتغسل يدها من اللحم وتلمس بيدها الثوب وتعاينه بعينها حتى تتأكد من نجاحي في تلك المهمة الصعبة، ومرت دقائق وهما يدققا النظر بالهدية ويقلبان في الثوب بتعجب وحسب ظني يدور في عقليهما هذا حقيقة أم خيال، احتارت عيناي بمن أبدأ بتقديم الهدية تذكرت حينها أبي عندما علمني أن الحق يعطى في الأول للأكبر سناً، بعدها اختفيتا ذهبتا لارتدائه.

ذهبت لجدتي، أقبل يدها حتى ردت ليّ بمسحة على رأسي وقالت: بارك الله فيك يا حمده ما أجمله من فستان، أحقاً هذا من خياطتك.

أمأت برأسي فكان جواباً لسؤالها، فرفعت يدها واستقبلت القبلة وقالت: اللهم اريني ثوب عرس ابنتي «حمده»

وتشابكت يداي لتحتضن أمي ووضعت رأسي على كتفها وقالت: ماذا أقول فيك يا حمده غير كلمة أبيك رحمه الله إنك بعشرة رجال بارك الله فيك يا ابنتي،

علت بعدها ضحكاتنا وسرحت حينها وشم أنفي رائحة الثوب الجديد وأنا أمسح بلطف خدي به وأقول بصوت خافت لأسمع قلبي ما أجمل لقمة العيش من عرق جبينك تريح أهلك ونفسك وترين بركتها في بيتك.

وفتح لنا باب الخير

كن صديقاً للحياة واجعل الايمان

راية وامض حراً في ثبات

إنها كل الحكاية وابتسم للدهر دوما

إن يكن حلواً ومراً ولنقل إن ذقت هماً

«إنّ بعد العسر يسرا»*

❖ مقتبس

ومرت السنون، وبلغت الثالثة عشرة من عمري، وبلغ أخي السابعة من عمره، والأيام الماضية اتصفت بالاستقرار والهدوء وها هي جدتي التي ما زالت تدير البيت بفطنتها وذكائها وتتفقد أحوال البيت، وترعى أفراده، رغم كبر سنها، أما أمي فهي القلب الذي يحتضننا، وهي البلسم لجراحنا، والبسمة لفرحنا، تتحلى بالصبر، والهدوء لم يفارق الحزن عينيها وقلبها والدليل على ذلك، عندما تخلو مع نفسها أراها تشرد بفكرها، وتعيش لذكرياتها الأليمة في فقدان زوجها وابنها، حتى يلفظ لسانها: رحمكما الله سبحانه، وكثير ما أرى عينيها تدمع عند استقبال مناسبة تتذكر وجودهما، أو عندما يسألها أخي عبدالله: أمي لماذا ليس عندي أب مثل صديقي أحمد؟

فهذه هي أمي، التي تستحق كل إعزاز، وتقدير ومما يصدر عنها يؤكد، أنها كذلك، فقد رفضت فكرة الزواج بعد أن تقدم لخطبتها الكثير من الرجال، حباً وخوفاً علينا تريد أن تعيش بيننا لتربيتنا ورعايتنا.

أما أخي «عبدالله» فأوكله خالي بالعمل مع أولاده في البيع

بدكان يمتلكه بعدما اعتزل مهنة الغوص على اللؤلؤ. وفي ذات يوم من الأيام من نفس العام أتت جدتي وأنا في المطبخ أقوم ببعض الأعمال وقالت: حمده، غداً أين ستذهبين؟

قلت لها: بيت أم عبيد.

قالت: سأذهب عصراً لأخبرها إنك ستتوقفين عن هذه المهنة؟

قلت لها: لماذا؟

قالت: يا ابنتي الغالية أنت في سن لا تسمح لنا أن نتركك تشتغلين فمكانك الطبيعي البيت.

قلت لها: ومن سيعول البيت جدتي؟

قالت: أخوك الآن يعمل مع خالك.

قلت: ولكن.. لا يكفي يا جدتي.

صمتت دون أن ترد ومرّ اسبوع أو أكثر كنت أرى الحزن على وجه جدتي وأمي كلما أخبرت إحداهما عن نفاذ أي صنف من الأغذية. وفي إحدى زيارات خالي لنا دار نقاش بينه وبين جدتي استعلمت بعد ذلك من أمي أن جدتي رفضت مساعدة خالي

وحينها سألت أمي عن سبب قرار جدتي عن توقفي لزيارات الجيران فأفهمتني إنني وصلت لسن تمنعنا العادات والتقاليد خروج الفتاة حينها أدركت لماذا ارتديت العباءة.

ومرت الأيام ثقيلة اشتقت للخالة «عائشة» صارت زيارتنا لها قليلة، لذلك كنت أحاول أن أشغل نفسي بالأعمال المنزلية تارة والجلوس مع أمي وجاراتها وتارة أعدّ أطباق أو أصلح الملابس التي تأتي بها الجيران بغرض إصلاحها وما أدهشني أن جدتي وأمي بقيتا صابرتان لا تتذمران ولا تشتكيان، حملا الهم في صدرهما.

وفي يوم إذ طرق بباب البيت وها هي الخالة «عائشة» تجر معها صرة من الثياب. أسرعت إليها بلهفة المشتاق لمن يحب فاكتوى قلبي ببعدها عني، فسلمت عليها بحرارة وقبلت رأسها عنوان فقداني لها. قالت ليّ بسرعة "ادخلي يا حمده داخل الغرفة سيدخل صبيّ".

قلت لها: صبيّ

قالت ويتصبب منها العرق: نعم.. نعم ادخلي بسرعة.

دخلت الغرفة وافكر بأمرين لما أقدمت لنا الخالة عائشة ومن العادة نحن نزورها لا هي تزورنا كما أنها لا تستطيع أن تمشي أثر الآلام الركبة التي لا تبرحها وثانياً من هذا الصبي الذي أحضرته معها.. قطعت تساؤلاتي وحيرتي أثر نداءها ليّ بالخروج ثانية.. جلست بقربها في فناء البيت وهي تمسح بعرقها بواسطة عباءتها.. تتنفس بصعوبة بالغة. وأمي توزع التحية لها سألت عن جدتي فأخبرتها إنها عند خالتي. وهي تهف بعبائتها على وجهها.. وبعد سؤالها عن أحوالنا رفعت عينها إلى والدتي وقالت: تعلمين «أم علي» إني كبرت وقوتي ليست مثل الأول وآلام ركبتي تفتت عظامي وقل نظري لا أستطيع أن ألبي حاجات الجيران ففكرت أمس ليلاً من الذي يجيد هذه الصنعة قلت ليس هناك غير حمده. لقد قررت أن أعطيها هذه الماكينة.

بدأت تتفوه أمي بكلمة فأشارت الخالة «عائشة» بيدها تريد أن تستكمل حديثها. تبادلت نظراتي مع نظرات أمي لم نستطع أن نتفوه بكلمة لأننا لم نتعود أن نوافق على قرار دون الرجوع إلى جدتي، هربت من المكان وفي نفسي أهرب من الموقف بحجة أنني

سأحضر القهوة للخالة. وتركت أمي تواجه الموقف وحدها. رجعت حاملة بالقهوة وأمي أبدت الاعتذار للخالة «عائشة» وضعت الخالة يدها على الماكينة فقالت: أم علي هذه هدية من زوجي، يعز عليّ أن أعطيها لأحد غيركم واعتبر «حمده» مثل ابنتي التي لم ألدها ما أريد أن أقوله يا «أم علي» ليس هناك خطأ في الأمر أن تعطي الأم هدية لابنتها بهذه الكلمات الرائعة التي دخلت قلبي كالماء البارد في ضحى يوم قائظ وحفرت في قلبي مكانة لن أنساها.

أسرعت لتقبيل يدها، فقالت أمي: أعلم ذلك وهي تحبك كثيراً فأكملت على جملة والدتي «وهي قريبة من نفسي كثيراً».

بعدها تجاذبنا بأحاديث أخرى استأذنتنا بالخروج وكنت فعلاً لا أريدها أن تخرج وتظل لوقت الغداء.

وبعد أن خرجت أسرعت لأمي وهي ترفع فناجين القهوة قلت لها: أمي.. كيف قبلت بالعرض ماذا لو رفضت جدتي ذلك ما العمل الآن، لم تتفوه إلا بعبارة: الله يستر سبحانه.

وبعد مرور ساعات من الزمن كنت في المطبخ سمعت صوت

جدتي تنادي علينا ارتعدت أزحت بنظرتي إلى شباك المطبخ. وإذ هي تسير نحو البساط الموجود في الفناء وضعت يدها فوق حاجبيها تستظلها من أشعة الشمس وأيضاً تعاين بنظرها ما تراه متروك فوق البساط، وهي تقول: ما شاء الله، تبارك الله ما هذا الخير.

أوزعت لنظري للبحث في الفناء عن أمي لتوها كانت تكنس ضحكت فهي هربت مثلي لا نستطيع أن نواجه الأمر. ولكن اصرار جدتي لملاقتها أثر اطلاق نداءات البحث عنا أين أنتما؟ أين ذهبتما؟ هل أنتما نائمتان؟ ألتفت على خالتي وهي تضرب كف على كف مستنكرة أين هما؟ لا أظن خرجا دون أن يخبراني.

خرجت أمي من غرفتها وأنا انظر إليها من خلال شباك المطبخ يبدو عليها الارتباك كأنها تجهز إجابة على السؤال الذي سيطرح بعد قليل ولكن أطلق لسانها بالترحيب لخالتي وبادي عليها الخوف من الموقف فقالت بعدما أزاحت غطاء رأسها أثر الحرّ: وصلنا من مدة ولكن أخبريني «أم علي» ما هذه الماكينة وما هذه الملابس؟

فقالت وهي لا تستطيع أن ترتب جملة للجواب على هذه الأسئلة: أمي لقد سلمت عليك «عائشة بنت سيف»، وأحضرت هذه الماكينة والملابس، وعرضت على حمده أن تقوم بهذا العمل أتعرفين يا أمي «عائشة بنت سيف» لقد كبرت ولا تستطيع أن تكمل هذا العمل.

فردت خالتي التي أنقذت الموقف وجعلته أكثر أماناً عندما قالت: والله لم تقصر فيما فعلته من معروف لنا من يهدي اليوم ماكينة خياطة؟ فلا ترفضي هذا العرض وإلا سأكفله بنفسي.

ضحكت والدتي ضحكة عبرت عن ارتياحها لإنقاذ الموقف. أما أنا فما زلت في مخبئي يسيطر الخوف على أوتار قلبي انتظر راية الأمان لأخرج، حتى نودي على إسمي وخرجت طوعاً.

وقفت أمام جدتي فقالت: حمده.. أخشى أن تكوني شكوت الحال «لعائشة بنت سيف» ولهذا أتت لتنقذنا.

قلت لها وما زال الخوف مطبق على صدري: جدتي تعلمين منذ أيام لم أخرج من البيت فكيف أخبرها، وكما علمتيني أن البيوت أسرار. هيا قبلي حفيدتك على خدّها بسرعة حتى

أعطيك بشارة حلوة. وبعد أن فعلت، أكملت وقلت: وأمي تشهد بذلك لقد قالت الخالة «عائشة» أعطتني الماكينة لأنها اعتبرتني مثل ابنتها فذلك ليس حسنة إنما هدية.

فقبلت جدتي خدّي سعيدة لردي هذا، وهي لا تعلم أن قلبي يكاد يخرج من جوفي خوفاً من أن تعاقبنا على اتخاذ القرار بدونها.

ومرت الأيام متلاحقة بأحداثها الروتينية، فصارت والدتي أمهر مني في هذا العمل الذي أعاننا في معيشتنا وإلى جانب عمل أخي «عبدالله» والذي يذهب ليتعلم إلى جانب القرآن الكريم بعض مبادئ الكتابة، وتفوق على أقرانه على الرغم من أنه يعمل نهاراً.

الحمد لله سارت الأيام على خير ما يرام، تتزاين في أركان هذا البيت بالحب والوئام، وحتى إذا صادفتنا بعض ساعاتها لحظات كدر وحزن، قضيت هذه الأيام نهاراً صرت أقوم بأعمال المنزل والعصر أعمل في الخياطة كنت حريصة على إتقان

العمل حتى نسر زبائننا وخاصة هذا العمل كثيراً من البيوت يقمن به.

وبعدها بأشهر قليلة بل أيام لا أذكر اليوم زارتنا مرة أخرى فأخبرتنا أنها لا تريد أجرة الماكينة فقالت: مقصدي الحقيقي أهدائي هذه الماكينة لكن لا الحصول على مقابل مادي ولكنني قلت ذلك خوفاً من أن ترفضن هديتي وتعتبرنها صدقة.

كم أحب هذه الشخصية لخيرها عليّ منذ كنت في السابعة من عمري وحتى الآن.

الحمد لله هذا الحدث أوجد في حياتي نظرة كبيرة.. كلما ضاقت ستفرج من عند الله وإن العبد لا ييأس من رحمة الله تعالي.

دار في خلدي أمر عندما خرجت الخالة «عائشة» بعد هذه الزيارة سؤال أخبرت أمي قلت لها: لماذا أتت الخالة عائشة إلى البيت لتخبرنا بهذا الأمر رغم كبر سنها وسوء صحتها.

فقالت: ليس من الأدب أن تستدعينا إلى بيتها حتى تخبرنا بذلك الأمر هذا دليل على حسن خلقها وتواضعها.

سرحت عيني بالثوب الذي بيدي وسرحت أذني لصوت الماكينة وهي تغرس إبرتها في القماش وانطلق لساني بجملة «ما أروعك يا خالة عائشة» هذا كله في ميزان حسناتك وأعمالك الصالحة أنت فتحت بيدك الطاهرة الكريمة باب خير بفضل من الله سبحانه وتعالى.

مرارة القرار

إن ضل دربك لحظة في سراديب الألم..

أو جاءك الخبر اليقين بأن حلمك إنهدم..

أو تهت في صحراء موبقة ورجعت تبكي في ندم..

وعجزت عن تفسير ما يأتيك من الوهم..

أقم الصلاة فنورها سيضيء دربك في الظلم!!*

---

* مقتبس

مـرت الأيام سـريعـة ولكن على وتيـرة واحـدة، وأصبـحت في الرابعة عشر من عمري. تفتحت ليّ مدارك الحياة أصبحت أعي كل مـا يدور حـولي فـإن الأحداث في السنوات الفـائتـة قد ثقلت شخصيتي ونفسي. أصبحت ليّ صداقـات وعلاقات أوسع مما كـانت خـاصـة عندمـا امـتـهنت مـهنة خيـاطة الملابس. صـارت اهتمـامـاتي أنثوية أنظر لكل شيء نظرة جمـاليـة وذوقيـة أشيـر وأستشيـر أمي في كل شيء أصبـحت مـلاصـقة لهـا واعـتبـرها صديقة لي، تعلمت منها أموراً أصبحت نهج طريقي في الحيـاة، ولا أنسى دور جدتي بدأ يدب المرض في أنحاء جسدها أصبحت تثقلهـا الأيام والآلام وأصبـحت ترفع يدهـا عن أمـور البيت شيـئـاً فشيئاً ولكن ما يعجبني ما زالت قوتها وهيبتها تهيمن على البيت نرجع إليها لإحتكام الأمور.

كبر أخي عبدالله فأصبح في صفوف الرجال، ويتصرف مثلهم فهو يتفقد أفـراد البيت، أمـا أختي «مـريم» فـأصبح لديهـا ولدين تزورنا بين الحين والآخـر وأصبـحت زياراتهـا قليلة خـاصـة عندمـا استقلت ببيت مستقل عن أهل زوجها.

وفي يوم بعثتني والدتي برفقة أخي لزيارة الخالة «عائشة» لسبب لم أفهمه. وفي الليل استدعتني أمي لغرفة جدتي أحسست بالخوف من أن أمراً عصيباً تمر به عائلتي. أمرتني جدتي أن أجلس أمامها وإذ تستفتح الجلسة بجملتها التي اعتدت أن أسمعها مراراً منذ أن بلغت العاشرة وهي «حمده أنت الآن كبرت»

أخفيت بعد سماع هذه الجملة ضحكة فقلت لها: وما الجديد في ذلك يا جدتي أعلم والله إني كبرت.. وأني..

فأسرعت أمي لتسكت لساني فقالت: حمده اسمعي ما تقوله جدتك وكوني أكثر جدية؟!

قلت: حاضر وكم جدة عندي، نعم وكلي آذان صاغية.

فقالت: ستزورنا جارتنا غداً عصراً،

قاطعت جدتي وقلت لها بحماس: هل ستطلب منا أن نخيط لها ثوباً جديداً أم...

وضعت أمي يدها على فمي لتغلقه لنسمع ما ستقوله جدتي عن هذه الزيارة.

قالت جدتي منهمكة: لا، لا، ولكن جاءت تطلبك للزواج ...

نزل علي كلام جدتي كالصاعقة وقلت متمتمة: ماذا... ماذا.. جدتي...

قالت أمي وهي تكاد تطير من الفرح: كل بنت مصيرها إلى الزواج وتكوين أسرة ورعاية بيت.

قلت وكأني تلقيت خبراً هز كياني: زواج.. ومن أخبركما إني أريد أن أتزوج أريد أن أعيش بينكم.

طبطبت جدتي على كتفي وقالت: حمده منذ كان عمرك الثالثة عشر والكثيرون يدقون بابك لخطبتك ولكن كنت أرفض حتى يكبر أخوك ويتحمل المسئولية ومتطلبات البيت. والآن أظنك أديت رسالتك على أكمل وجه وكثر الله خيرك. فلا نريد أن نكون أنانيين، وهذه سُنة الحياة يا حمده، وأرى من جاء لخطبتك رجلاً صالحاً يشهد له بذلك، ماذا تقولين يا ابنتي؟

لم اسـتطع حـينهـا الرد على هذه المفـاجـأة التي لم تكن في حسبـاني وخاطري فـالتزمت الصمت. فـخرجت ووقـفت في الفناء والدنيا تدور من حولي ويدور في خلدي كلمة «الزواج».

انظر إلى جدران البيت وأقول: لا أسـتطيع أن أفارق هذا البيت لا أسـتطيع؟

وقـفت أمي بجـانبي كمـا تعـودت منهـا عندمـا أمـر بمشكلة لا تتـركني أبداً وقـالـت: حمده.. أعلم أن القـرار في هذا الأمر صعب ولكن هذه سنة الحياة فمثلاً لو رفضت الزواج من أبيك رحمه الله لما خـرجت للدنيا فتاة مثلك؟ وهل نسيت صديقتك موزة وفاطمة بل نسـيت أختك مـريم والآن يعـشن في سـعـادة، والحـمـد لله، وإن كانت المشكلة بالنسبة لك التفكير فينا.. فـلا تنسي أبداً فـأشارت بأصبعها إلى السماء فقالت: هناك رب لا ينسى عبده.

وضـعـت يدي على وجـهي لأخـفي دمـوع خـرجت من عـيناي أخذتني بحضنها الدافئ الملاذ لراحتي واطمئناني وختمت حديثها

الحنون بجملة شجت بصوت بكائها ولكن يعز عليّ فراقك.. وتكونين بعيدة عني» .

فقلت لها والدموع تتساقط لأمسحها.. لا سأعيش هنا في البيت نفسه لن أفارقكم.. أز صدرها بالبكاء وعلت نبرته.. ففكت ذلك الاحتضان وذهبت نحو غرفتها لم ترد على اقتراحي. ذهبت بعدها إلى جدتي وهي ترتب الثياب فقلت لها: جدتي ما رأيك لو أخبرت جارتنا أنني أريد العيش في هذا البيت..

رفعت عيناها عن الثياب وأمرتني بالجلوس أمامها فقالت: هناك أمر لا بد أن تعلميه تركته لأمك تخبرك به..

قلت بفضول: وما هو الخبر الذي لم تخبرني به

فقالت: بعد صمت دام فترة أعقبها وضعت يدي على رجليها أهزها وكأني استعجلها أن تكمل حديثها بسرعة، الرجل ليس من هذه المنطقة،

قلت بصوت مخنوق: ليس من هذه المنطقة من أي مكان هل من منطقة أختي مريم أم عمتي.. من أين.. أخبريني من أي مكان؟

دخلت أمي لترفع يدي من فوق جدتي فقالت: هدّئي من روعك يا حمـــده اذكــري الله سبحانــه الرجل صالح، لقد سمعنا عنه كل خير.

التفت إلى أمي وقلت لها: أنا لم أعارض ذلك يا أمي ولكن لا أريد أن أكون بعيدة عنكم أريد أن أبقى بقربكم أزوركم كيف أبعد عنكم؟ لا لن أترككم.

سكت فقالت جدتي: حمده.. الرجل ليس من هذه البلاد إنه من بلاد أخرى..

ياه عزيزتي القارئة حينها ألم بي صداع شعرت كأن مطرقة فتت جمجمة رأسي.. وضعت يدي على رأسي وأغمضت عيني لكي أوقف هذا الصداع. لم أتفوه بكلمة وجدتي وأمي تنظران إلي بحب وإشفاق وسعادة.

فالخبر شلّ كل عضو في جسدي حتى لساني.. فتفكيري وقلبي وفي أعماق نفسي لم أقبل رجلاً خارج المنطقة التي أعيشها بل وحتى خارج الحيّ الذي أسكنه والأن لم أتوقع رجلاً

خارج وطني. لكني فتاة تربيت ونشأت على السمع والطاعة فوقفت مع نفسي وقلبي يخفق وضرباته تزداد فيتصبب جسدي عرقاً من شدة خوفي ولكني لفظت بدعاء كأنه بلسم لخوفي «اللهم لك الحمد على كل حال» .

دنت جدتي مني وقالت: ليس من عرفنا أن الفتاة ترفض رجلاً تمت الموافقة عليه وخاصة خالك أعطاهم كلمة بالقبول بعد هذا الكلام وجدت من الضروري أن أخرج فالمناقشة في هذا الحديث لن يجني ما بخاطري. تذكرت صورة أختي «مريم» يوم زفافها كما تذكرت جيداً أنني لم أسمع لها حديثاً عند خطبتها سواء بالرفض أو القبول، وبهذا لم يكن في وسعي إلا أن أرفع راية الاستسلام.

لم أذق العشاء في هذه الليلة .. أعددت فراشي للنوم في الفناء وأرى من بعيد أمي وجدتي يتحدثن ولكن لم يهمني ذلك أعلم يتحدثن بأمر زفافي ولهذا أغلقت عيني وأذني حتى لا تزيد نفسي سوءاً مما هي عليه.

مـرّ الليل ثقـيل اتقلب في الفـراش، أشـعـر بثـقل جـاثم على صدري، مـا زلت مضـطربة خائفـة من مسـتقبل مجهول لا أعـرفه، قلقـة على فـراق هذه الأسـرة لم أسـتطع اغـلاق جفـني للنوم ومـا الحل؟! إنني تعـبـة.. وكـأن هنـاك من طرق على أذنـي أن أذهب لأصلي. رفعت الغطاء عن جسدي وذهبت أتوضأ لأصلي. الوقت الآن السحر. رفعت يدي لتكبيرة الاحـرام.. شـعرت بشعور غـريب لتوه كنت مضطربة خـائفة قلقة والآن الوضع مختلف أشعر براحة وطمـأنينة، لمجـرد رفـعت يدي للصـلاة «ألا بذكـر الله تطمـئن القلوب» وبعد الصلاة سكنت نفسي وسبح بعدها تفكيري لهذا الدين العظيم علمت من خـلال هذا الموقف أن التـقـرب إلى الله عـلاج النفس البشرية. ارتاحت نفسي بعد معاناة الحيرة والتردد وشعرت بهدوء داخلي وكأنني لتوي خـرجت من عاصفة بل اعصار داخل نفسي. رفعت يدي بالدعاء لله سبحانه وألح أن كان الأمر خيـر لي في ديني ومعاشـي وعاقبة أمري فاقدره ليّ ويسره ليّ ثم بارك لـي فـيـه.. دعـوت بهـذا الدعـاء مـراراً وتكراراً.. شـعـرت بالطمـأنينة أكثـر.. وبعـدها فـوضت أمـري لله سـبحـانه.. تركت

التفكير بموضوعي وشغلني بالراحة التي أنا بها.. نعم هدأت نفسي واستقرت سريرتي فما أعظم ديننا! إنه علاج نفسي فطري وروحي. رجعت إلى مضجعي لأضع رأسي على الوسادة أشعر براحة وطمأنينة بعد صراع نفسي أظن الطرف الآخر الذي كان يتعارك معي هي وسوسة الشيطان.

أغمضت عيناي وسبحت في سبات عميق حتى ايقظني مؤذن صلاة الفجر وفي الصباح لم أتفوه بكلمة غير تحية السلام. أعددت الإفطار ونظفت الفناء وجمعت الملابس لغسلها.. حينها رأيت حركة غير معتادة حضور خالي وخالتي وأمي وجدتي يتشاورون معهم.. كنت اتساءل هل الحديث الذي يدور بينهم يخصني؟ جرتني فكرة مغادرة هذا المكان حتى قطعها نداء أمي أن أحضر القهوة والرطب لضيوفنا حملت الضيافة وإذ بي أرى العيون تحاصرني بنظراتها، شعرت بالحياء والخجل وضعتها على الأرض وهربت مسرعة وقدماي تتخبطان من شدة الخجل، حملت نفسي خارج هذا المكان.

جلست في الغرفة كم كانت خانقة فجوها حار رطب، ولكنني أهرب من أجل أن لا تحاصرني المناقشة.

فقرار زواجي آه ما زلت استطعم مرارته كلما تذكرت فراق هذا البيت وفراق الأهل وتراب الوطن.. كلما شعرت بذلك ادعو الله سبحانه أن يثلج صدري براحة وطمأنينة تمحو مرارة الفراق.

حديث الفجر

قلت لليل كم بصدرك سر

أنبئني ما أروع الأسرار

قال ما ضاء في صدري سر

كدموع المنيب بالأسحار*

---

* مقتبس

وأعلن يوم جديد بإصداع المؤذن فجراً. جلست على سجادتي بعد الصلاة التي كانت في فناء البيت، أسمع صوت الصمت، ما أجمل هذه الساعات يشاركني فيها صياح الديك وزقزقة العصافير.. وزعت نظراتي إلى أجواء البيت.

القي ببصري هنا وهناك تلك الزاوية في أقصى الفناء هناك كانت أحلى أوقاتي الذي جمعني فيها الحب واللعب مع أخي «علي» رحمه الله، ما زالت ضحكاته وصرخاته في أذني، وأخذتني ذكرياتي للأيام التي اعتبرها أيام البراءة والطفولة... ثم زحف نظري إلى باب المطبخ ذاك المكان وكأن شريط سينمائي يمر أمام عيني أحداث الدانة، أغمضت عيني لتستجمع صورة أبي وأخي يا الله خرجت تنهيدة من جوفي ما أجمل تلك اللحظات الفائتة! كل مشارك بكلماته ضحكاته، اندهاشه وترقبه.

إنسابت دموعي على خدي أكثر لأني اشتقت إليهما. نزل نظري بعد أن مسحت دمعتي إلى السجادة التي كانت تصلي عليها أختي مريم كل جزء في هذا البيت طبع بصمته بداخلي

فكانت أختي إذا أرادت أن تخلو مع نفسها تفترش السجادة تحت هذه النخلة الباسقة، وإذ بي أرفع عيني نحو هذه النخلة، تذكرت عندما كنت ضئيلة الجسم صغيرة السن أصعد لأجني ثمارها وبها صنعت أرجوحة تقاسمنا اللعب بها مع أخي.

كم أنت غالية على نفسي أيتها النخلة.. عصفت بي مشاعر حزن طغت على كياني كله، وحملني شوقي وحبي لهذا المكان إلى دنيا قاتمة لا أتبين صورتها فهو شعور مختلط بالحزن، الأسى، الشوق، الحنين، الفراق مسحت عيني وأبصرت غرفة جدتي ولساني يقول كم أحبك كم تعلمت منك الكثير ابصرت مسيرتي نحو الخير وحسن التدبير.

أمسكت بقطعة القماش لأمسح دموعي، وإذ بي أشم رائحة أمي من المؤكد أنها خلفي التفت خلفي رفعت عيني وهممت لأقف لألقي عليها تحية الصباح.

إذ بها تضع يدها على كتفي وتأمرني بالجلوس جلست بجانبي وضعت يدها على يدي ورفعت بيدها الأخرى لتمسح دموعي وكان

الديك يتجول أمامنا فقالت: حمده.. هل ترين هذا الديك؟! ما رأيك في منظره وهو يتجول وسط الفناء؟

نظرت إليه وقلت: أي منظر يا أمي.

قالت: هذا الطائر كم سيمكث عندنا في هذا البيت أو كم سيعيش

قلت لها: لا أعلم.. لم أفهم ماذا تقصدين يا أمي؟

قالت إبنتي لا أنا ولا أنت ولا حتى هذا الطائر يعلم كم سيمكث في هذا المكان. عزيزتي هذه الحياة ما هي إلا محطات منذ أن خلقنا علي هذه الأرض حتى ساعتنا هذه لا أحد منا يعلم متى سينزل وفي أي محطة سيستقر. حمده هذا تقدير من رب العالمين أن حياتك الزوجية في مكان آخر ستنزلين في محطة بعيدة عن أرض الوطن.

تجمعت الدموع في عيني تعلن ساعة الحزن والألم فالتفتت إليّ وقالت: ولتكن هذه الدموع دموع الفرح فأنت فتاة طيبة وكل ما قدمتيه لأسرتك ومن حولك ترك أثراً طيباً في قلوبنا وقلوب

جيرانك وأصدقائك، فأنت ساعدت الغير وقدمت الخير وصبرت وكافحت وأظن أن قصة كفاحك لن تنتهي بل ستبدأ من جديد عند انتقالك من هنا.. ابنتي..

اختنق صوت أمي وخفت وأنا أرى دموعها تنهمر وتضع يدها على وجهها وتبكي بصوت مرتفع لم تستطع التماسك ثم رفعت يدها من على وجهها فقلت لها، ودموعي تتساقط: أمي أرجوك.. دموعك تمزق قلبي لا أريد أن أراها.. أمي غاليتي إن كان زواجي وفراقي يحزنك فلن أقبله..

فأومأت برأسها وهي تقول: لا.. لا.. لا يحزنني زواجك ولكن يحزنني فراقك فعيناي لن تراك كل يوم فالذي يبكيني شوقي لك شوقي لك..

فبكت فوضعت رأسي على صدرها وقلت لها: أمي هل نسيني مقولتك إن حياتنا ما هي إلا محطات لا بد أن نمر فيها.. لا لقاءات أبدية هنا في هذه الحياة.. تعانقت يدانا ونحن ننتظر شروق الشمس فقلت لها: ما يحزني يا أمي ويبكيني إنني سأفارق

قلوب أحبتني وأحببتها، نسجت معي أجمل قطعة هنا قلبي فقلبي يا أمي يحمل حب عشته في هذا المكان، بعدها سمعت كلمات الشهادة من جدتي خارجة من غرفتها.. تسير بخطواتها الثقيلة.

وقفت أمامنا فقالت أمي: سأذهب لأعد القهوة

فقالت جدتي: أجلسي بمكانك فالقهوة مبكراً لإعدادها الآن،

جلست بجانبي وألتفت إليّ وقالت: حمده وأنا ماشية إليكما.. أرى هذا الوجه المشرق، يترجم عن ثلاث كلمات رضى والديك عنك، وحبك للخير وطاعتك،

ضحكت وقلت لها: جدتي.. رضاك .. رضاك.. يا أغلى الناس..

فأكملت حديثها ليّ فقالت: يا حلوه اللسان أوصيك بالصبر فهو عصب حياتك، وبما إنك ستعيشين في مكان بعيد فالصبر هو الخلق الذي يهون عليك مصائب الدنياوطاعة زوجك هو بلسم حياتك..

وضعت يدي علي وجهي خجلاً عندما سمعت كلمة زوجك.. فقالت وهي تقرص خدي.. آه منك على حيائك يعني لا نستطيع أن نتحدث في هذا الموضوع بتاتاً ما رأيك الآن فوضعت يدها على فمها..

ضحكنا ضحكة وإذ أخي عبدالله يركض مسرعاً نحونا وقال: ماذا بكن؟ لقد افزعتموني..

وما زالت جدتي واضعة يدها على فمها ينظر إليها متعجباً من هذه الحركة وما زلنا نضحك لحركة جدتي وأخي يقول: يا جماعة.. ما هو الموضوع أفهمنني..

زادت ضحكاتنا أكثر لاندهاش أخي ووضع جدتي.. حتى رفعت يدها وقالت: يعني.. لن نشرب القهوة اليوم.

قمت من مكاني وإذا الشمس ترسل أشعتها تعلن عن يوم جديد نظرت إليها وقلت في نفسي: لا تلوميني يا نفسي إن أحببت هذه الأنفس الطيبة.

أجمل غروب عند التقاء القلوب

من أنت؟

أنت نزف من الإحساس

فيض من المشاعر

أنت نبع من الحب

دفاق وطاهر

لو جرى قلمي بوصفك لنتهت كل المحابر

أنت أرقى من تكتب فيك الخواطر

لن يفي وصفك شعر حتى لو نظم فيك ألف شاعر

دمت لي حباً به دوما أفاخر*

---

* مقتبس

سـارت خطواتي ثقيلة تطبع على الأرض مـودعـة بيتـي ووطني نحو المركب متجهة إلى أرض بعيدة ومستقبل جديد.

وهذا اليوم هو اليوم الأخير مع أسرتي. كانت تشارك الدموع لحظات غـريبـة على نفسي.. ضـربات قلبي تتـسارع مع خطوات قدمي.. أريد أن يكون اليوم أطول بساعاته.

الوقت عـصـراً سـأكـون في المركب بعـد قليل سنبـحـر وهنا تعـايشت لحظات وداعي لأمي وخـالتي وزوجـهـا وعـمـتي وأخي عبدالله أما جدتـي اعتذرت عن الخروج لتوديعي لأنها لا تستطيع أن تسيـر مسـافة طويلة.. وهذه اللحظات لن أنساها أبداً جلسنا في زاوية ننتظر بالإذن لي بالخـروج وكـانت التي تدير الحـديث خـالتي أما أمي فظلت ساكتة بل صامتة لا أرى عيونها وذلك أثر غطاء وجهها.. لا أستطيع التركيز في حديث خالتي لأنني أتلهف أن اسمع صوت أمي تنطق بكلمة أو حتى حرفاً.. قلبي يخاطبها.. أمي ما بك ما الذي تفكرين به ما الذي يدور في خلجات فكرك.. نعم أظن أنها تبكي نعم تبكي.. وهذا ما رأيته عندما رفعت يدها

ودستها تحت غطاء وجهها لتمسح عينيها، ونودي عليّ وكأني أريد الرجوع عن قراري ليس بيدي حل ورفعت حاجاتي وسرت إلى المركب هناك أناس معنا.. ألتفت إلى الجميع.. ارتبكت لمصافحتهم مودعة وارتعدت خائفة من مجهول أيام لا أعلمها.. كانت البادئة في توديعي خالتي.. سلمت عليها طبعت قبلاتي على خدّها وهي توصيني وتدعو ليّ وها هي بعدها عمتي ودعتني بوداع رفع معه بدموع وبعدها أتت أمي التي كانت ترتعد مثلي

وأجهشت بالبكاء يحاول أخي أن يهدأ الوضع أقول لها: أمي.. أمي.. أرجوك.. لا تعتصري قلبي ببكائك أريد دعائك ليّ.. وسامحيني يا أمي إن أخطأت في حقك سامحيني رضاك هو شعلة طريقي ومنارة مستقبلي أمي.. لن أنساك أبداً لن أنساك..

حضنتني بقوة وزاد بكائها غرست أصابعي بظهرها أريد أن أتشبث بها.. أتمنى أن تكون معي في سفري في حياتي المقبلة. حتى مدت يد أخي لفكها عن ظهر أمي وهو يقول: كفى.. كفى ماالذي تفعلانه.. أظن الناس ينظرون إليكما..

رفعت رأسي من كتفها حتى مدّ أخي يده صافحني وقال: هيا يتنظرونك..

ركبت المركب وتمايل جسمي أثر سير المركب نعم أعلنت لحظة المغادرة والسفر.. أبحر المركب وعيناي ترى تلويح أيادي أحبتني انظر وما زالت دموعي تسيل على خدي وظلت عيناي على أمي من بعيد وقفت واجمة أرفع يدي أرسل سلامي الحار إلى أمي وها هي الصورة شيئاً فشيئاً تتلاشى لا لا أريدها أن تختفي أنظر إلى البحر فذكرني بأيام طفولتي انظر إلى البيوت كنت أبحث عن بيتنا من بينهم.. نعم هناك جدتي.. أود أن أصرخ لتسمعني.. جدتي.. جدتي.. أني أحبك رعاك الله سبحانه.. أطال في عمرك.. لتقر عيني لرؤيتك ثانية جلست بعد ما أمروني خوفاً من تغلب موجات البحر. اختفت صورة أشخاص أحببتهم.

أمي لن أنساك أبداً وأقسم بالله سبحانه لن تفارقني صورتك وطيبتك، منك تعلمت الكثير.. لن أنسى جدتي.. منها تعلمت أيضاً الكثير ولن أنسى الخالة عائشة الحنونة الكريمة وأختي مريم وأخي عبدالله العائل الآن لأسرتي.

التـفـت خلفـي انظر لأرض بذر فـيــه أروع حب «جـدتـي وأمي» رويتـاهـمـا بحنانكمـا وعطفكمـا وأمـومـتكمـا، سـقـاه قلبي وروحي ووجداني..

عـزيزتي القـارئة.. هذه قـصـتـي التي اعـتـبـرهـا «أروع حب» عاشته أجمل أيام حياتي..

لا تختلفي معي قارئتي العزيزة إنك عشت قصة رسمت بألوان الحب والتفاني والاخلاص والتواضع وحب الناس..

مـسـحت دمـوعي عند السطر الأخـيـر لهـذه القـصـة ورج سـمـعي لصوت مزمار السيارة الذي يأمرني للصعود أخذت لقطة صورة تذكـارية للبيت ورفعت قـدمي لسـيـر نحـو السـيـارة، وسـارت بي المركبـة وأنا أقـول نعم عـشت قـصـة أحـرفـهـا شكلت وصنعت من أحاسيس ومشاعر نفتقدها في هذه الأيام..

وظل سؤال يلح على نفسي ويتوق إلى الإجابة عليه كيف عاشت «حـمـده» بعـد زواجـهـا وكـيـف واجـهـت مـصـيـرها في البـلاد الأخرى...!!؟

وكأن حديث نفسي سمعته «حمده» فأجابت لي عشت حياة سعيدة هانئة زاخرة بالحب والاخلاص عشت بكنف زوج وأبناء نسجت لهم قطعة عواطف إنسانية بها «الحب.. والود.. والوئام.. والسلام».

عزيزتي القارئة * ... في نهاية روايتي أتمنى أن لا تبخلي بالدعاء لهذه الشخصية «حمده».

«اللهم اغفر لها وأرحمها واجعل الجنان سكنها»

«اللهم آمين»

---

* الكاتبة